الرجل القادم من الجنة

(كي أحتفظَ بكفي دافئة)

اســــــم العمـــــــل	:	الرجــل القــادم مــن الجنــة (كــــي أحـــتفظَ بكفـــي دافئـــة)
النـــــــــــوع	:	قصــــــــــــــــص
تـــــــــــأليف	:	صـــــــابر رشـــــــدي
تصــميم الغــلاف	:	حكـــــــيم صـــــــالح
إخـــراج داخلـــي	:	عبــــــدالقادر فــــــايز
الطباعــــــــــة	:	اتيليــه تــاتش ـ المحروســة
الناشـــــــــــر	:	الـــدار للنشـــر والتوزيـــع
المـــدير العـــام	:	محمـــــد صـــلاح مـــراد
تليفـــــــــون	:	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريــد الإلكترونــي	:	eddar_press@yahoo.com
فــــيس بـــوك	:	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــم الإيـــداع	:	٢٠١٦/٢١٧٦٧
التـــرقيم الـــدولي	:	I.S.B.N.: 978-977-702-154-8

الرجل القادم من الجنة

(كي أحتفظَ بكفي دافئة)

قصص

صابر رشدي

الدار
للنشر والتوزيع

٢٠١٦

إهــداء

إلى
تلك التي تحملت
هذياني
وجنوني
من أجل ثمرة ناضجة.

...

كانت تقول بنبرة دافئة:
لا تجلس في آخر الصفوف!

...

إليكِ فاطمة:
باقة ورد
وفيضًا غامرًا من محبتي!

استهلال

لا تركن إلى الصمت.

احكِ لي عن ألمك. عن وجيعتك، عن أوطاننا المشبعة بالسم. عن تظاهرنا بالسعادة. اُكتب لي نصًّا مغريًا، ولكن لا تجعلني أبكي. فأنا متعب جدًّا، ولكني أتظاهر بالصبر.

يا حارس الضوء، والحروف البارقة:

اُكتب على جدران مدينتك، أنك ترفض العزلة، والسكون، جابه العالم بحكايات مدهشة، وأنفاس مفعمة بوهج الحياة. فهناك مساحة شاسعة من الكلمات، سأرسلها إليك مع النوارس، مع السحب البيضاء، لتمطر عليك بردًا وسلامًا.

اُترك اللاشيء للاشيء، لحواشي العدم، وأدهشني بقصيدة خالدة!

ص. ر.

(١)

على باب اللّه

هأنت، تمضي وحيدًا في الطرقات، كشبح يتوارى من الخجل وهو يخترق المدى، طاويًا المسافات، لا تدري أسماء الدروب، ولا تنتبه إلى الوقت، ليلك مثل نهارك، سرُّك بينك وبين الله، لا تعرف غيره، هو الأحد.

تمضي في الفلوات بسيطًا ومتلاشيًا. أجدك يومًا على أعتاب وليٍّ، مستندًا إلى جداره، مستغرقًا في غيبوبة ووجد، تستعير ملامح ملاك كان يعبر بجوارك، ألمحك مبتسمًا، سيماؤك تسفر عن رضًا لانهائيٍّ، ولا تكون أنت أنت. أراك في المدن البعيدة، متوكئًا على عصاك، تمشي متباطئًا، لا يشاغلك شيء، لم أشاهد كسرة خبز بين أصابعك، ولم أرَكَ تسأل النَّاس. كنت أراقبك أحيانًا، أحاول الوصول إليك، علَّني أدرك السر، لكنك شعرت بي، ووقفتني، وقلت مترفقًا:

ماذا تريد يا واصلي؟

كدت يومها أقع صريعًا، مغشيًّا عليَّ، فهذا لقب عائلتي، واسم جدي الأكبر، نُنادى به في قريتنا، وبين أقاربنا.

يا أنت: كيف تحتمل البرد. كيف تحتمل القيظ. أين تهرب من المطر والسيول، وتتوارى عن هذه الأشياء، أين؟

كيف تمضي لا مبالياً، غير معنيٍّ بأن هناك بشرًا، وحروبًا، وعالمًا متخمًا بالقسوة والشر؟

يا أنت، يا أنا، كلانا صُنع من الغيم، وتوارى خلف التاريخ، والمعنى، خلف الإشارات وقوانين السِّر.

(٢)

غريب

أنا الغريب، كحصان بريٍّ نافر، يذرع خرائط العالم. ولا يمكث في الحقب. أركض في الفضاء وراء الكلمات المبهمة، وراء الانكشاف التدريجي للغة، فريسة اليأس والنكران، الفقد، والليالي المظلمة.

لم أتعلم الامتثال، كلمعة البرق. كزلزال خاطف. يرسم على صفحة الغبار دوائر عاصفة، يرسم نساءً جميلات بألوان مدهشة.

الوقت لا شيء.

الوقت لا شي، فأنا خارج الزمن، خارج المكان، تتكرني أعضائي، تتكرني ملامحي.

أنا الغريب النافر كحصان بريٍّ، كلَّما حدقت إلى مهرة تحولت، وأخذت شكل جنية هائمة في غابات من شهوة صمَّاء، وليالٍ مظلمة.

المغدور، الملطخ بآثام العالم، قادم من المكابدة، من وحشة النَّبذ والنسيان، أبحث عن شجرة تورق مشاعر لاعدوانية، عن ذكريات مبهجة، تشمل المدى حنينًا، وتبدل بأحزاني كائنات تبدد وحشتي.

أنا الغريب...

جروحي غائرة من الطعن، والنصال الغادرة.

(٣)

أعظم شحاذة في التاريخ

كانا يسيران أمامي، المرأة وطفلتها الصغيرة، تتهاديان بطيئًا، المرأة بجلبابها الأسود والشال المطروح إلى الوراء، الطفلة بجلباب مهترئٍ، وضفيرتاها منطلقتان خلفها.

كنت هناك أسير وراءهما، أتأمل كَفَّ السيدة المتجهة نحو السماء، وهي تقترب من المارَّة. لا تتكلم، لا تطلب شيئًا. كان الشارع متسعًا، رحيبًا، مكشوف المدى. وأنا في طريقي لزيارة مقام (زينب) الطاهرة، سيدتي التي أحن إليها كلما ضاقت بي الأرض.

اقتربت من السيدة وهي تجر ابنتها، دفعني فضول قاهر، لا أدري كنهه، نظرت إليها، فتعثرت في خجلها، ذابت في حرج مميت، وكادت أن تسقط على الأرض.

حدقت إلى الطفلة، وجدتها جميلة جدًّا، مضيئة ومبتسمة، أطلت التحديق. وجدتها ولدًا.

المرأة التي روَّعها الخجل. كانت أمِّي.

الطفلة الصغيرة كانت أنا، ذلك الطفل الذي جاء متأخرًا، بعد عدد من الأطفال منذورين للموت، كان عبق الضريح يتضوع من بعيد، وتفعمني رائحته الزكية بعطر مقدس.

شرعت أمي تسرع الخطى، وتأخذ معها طفولتي المشحونة بالشقاء والألم. رحت ألهث وراءهما، حائرًا، معذبًا، مستحضرًا ماضيَّ الموغل في القِدم، حتى تَوَقَّفتْ في النهاية، وتركت لي الطفل، حول رقبته قلادة من نقود فضية مخرومة ولامعة.

قالت وهي تداري خجلًا رقيقًا:

خذه معك، وانتبه إليه، وداوم على زيارة السيدة.

كانت تشير إلى المقام. قبل أن تختفي تمامًا عن ناظري.

(٤)

رجلان وظل وحيد

بعد انقضاء الظهيرة بوقت طويل، وانحدار الشمس نحو الغروب، كان هناك رجلان يمضيان في اتجاه واحد متجاورين، يتحاوران حول أسئلة كونية لا نظير لها، عن صيرورة العالم والتطور، ما هو مادي أو هيولي.

الظل المائل للرجل (أ) يتماهى معه، مقلدًا تحركاته، كأن الطريق مرآة أرضية.

الرجل (ب)، وهو الذي يطرح الأسئلة العصية. بلا ظل تمامًا.

كانا يمضيان في صمت أحيانًا، ربما انخفض ضجيج الأفكار المارقة.

الرجل (أ)، لا يلتفت إلى هذه المفارقة الجوهرية التي تعد خروجًا عن الطبيعة والمنطق.

الرجل (ب)، لا أحد يدري، هل كان يلاحظ عدم انعكاس ظله على الأرض، رغم عينيه المنخفضتين إلى أسفل كأنه يبحث عن شيء مفتقد.

كـان الطريـق معبَّـدًا، ينبسـط أمامهمـا دون عـائق، وثمـة شـعور بالارتياح يسيطر على خطواتهما كلما أوغلا في استنطاق إجابات على الأسئلة الحائرة.

أخيرًا، وفي أحد المنعطفات، انحرف الرجل (ب) ساحبًا معه الرجل (أ) تاركًا ظله.

الظِّل وجد نفسه بلا كينونة، فالتقط قطعة من الشمس ومضى بها وحيدًا في دهاليز غربته.

(٥)

رؤًى

مع الإفاقة التَّامة، وتلاشي النعاس، واختلاط وجهه بالضِّياء إثر السَّكينة التي تناثرت على مدار ليله، وجد كفَّه مضمومة بقوة على شيء قادم معه من أعماق نومه.

أخذ يفكر أكثر مما يرى وهو يتطلع إلى النُّور، كان مذهولًا يخشى فتح يده حتى لا يطير ما بداخلها، نبضات قلبه تتسارع، نبضات عينيه تستطلع الأمر بجدية. لا يتذكر جيدًا، أين كان سابحًا في سفره الليلي. وفي صحبة مَنْ كان يقرأ أوراقًا قديمة تحت ضوء القمر.

بقلب خافق، وكثير من الحذر، بدأ يفتح كفه ببطء، منتظرًا ما تأتي به المقادير، فوجد مفتاحًا فضِّيًّا، مضيئًا بلمعة هادئة. عندما حدَّق إليه تذكر كلماته الحكيمة، ملامحه المطمَئِنَّة، نظرة التَّعاطف في عينيه، رنَّت داخله عبارات خارقة، فمال إلى الصَّمت، تاركًا حِسَّه الدَّاخلي يقوده إلى فجر يلتمع بالضِّياء والأمل.

(٦)

مديح العَمى

لا شمس، ولا قمر، لا بحر، ولا نهر، لا وردة، ولا سنبلة، لا جبل، ولا سهل، لا وجه، ولا جسد، لا شيء.

لا شيء تطل عليه عيناك المطفأتان.

ولدت بين نور وفِراش ليِّن، لكن الضوء كان ينسحب من حياتك.

رويدًا، رويدًا، يهرب من مقلتيك، هاربًا إلى قلبك، ما تفقده أمامك تجده داخلك، كنت ترى ما لم نرَ، تبصره ببصيرة حادَّة، تسبقنا جميعًا. وتخبرنا بألوان ملابس أولادنا وفساتين البنات التي تبتاعها نساؤنا من الأسواق، تحذرنا من السير في بعض الدروب أوقاتًا معينة، تصف لنا كائنات وحدتك، المخلوقات التي تداعبك وتلعب معك ألعابًا لم تصل إليها مخيلتنا.

تكبر ونكبر معك، ننكمش إلى دواخلنا، وتنفتح أنت على العالم الرحب.

أعاين مشهدًا مفجعًا، وقبل أن أحدثك عمَّا جرى تفاجئني ببكائك، فأصمت وأعرف أنك أبصرت كل شيء.

يا أنت...

أنا الأعمى.

وأنت المبصر.

فخذ بيدي، وامنحني وعيًا إدراكيًّا.

وافتح لي طريقًا بين حدقتيك.

(٧)

قطرات الماء

القطار يمضي، يشق ستار الليل، يخترق المدن، والمسافرون نيام، لا شيء هناك غير الصمت داخل العربات شحيحة الإضاءة، ورنين العجلات وهي تعزف لحنها الرتيب فوق القضبان، الذي يصل من الخارج ويبعث معه نشاط من الصور والذكريات.

كنت مرهقًا، أحاول النعاس، ولكني لا أستطيع، فأنا لا أعرف الراحة أثناء السفر. أكون منضغطًا بجبين متعب، تمر عليَّ الساعات، وترتحل الدهور، وينشغل عقلي بلا هوادة بتفتيت الوقائع، وإتلاف كل معنى قد يؤدي إلى نتائج غير محببة.

الضوء والظَّلام، اليقظة والمنام، الماضي والمستقبل، كل الأضداد تهدر في مخيلتي، ولا تعطيني فرصة لالتقاط الأنفاس.

ثمة رجل مُسِنٌّ يجلس على المقعد المقابل، كلما استيقظت من غفواتي المتقطعة وجدته ينظر إليَّ بابتسامة غامضة.

في المرة الأخيرة، اعتدل في جِلسته ثم سألني بنبرة مترفقة:

. ما كل هذا القلق؟

كنت أشعر أني في غيمة، أراه من وراء سحابة.

. أنت تحبها.

قال معترضًا مسار تفكيري في تلك اللحظات.

أخذتني حيرة مباغتة.

. هي أيضًا تحبك!

هنا لا ينبغي الإنكار وادِّعاء عدم الفهم.

. أعطني جنيهًا! قال.

فعجبت، وتغيرت نظرتي، لكني قررت عدم المجادلة.

أخرجت من جيبي ورقة نقدية.

أعادها إليَّ.

. أريد جنيهًا معدنيًّا، أعرف صعوبات حبكما، أعرف السدود التي تواجهكما، الجنيه المعدني في جيبك الآخر.

ناولته إياه مندهشاً.

. إنها جميلة يا سيدي، أميرة من العصر الملكي. قلت.

. أعرف. قال.

ثم وضع الجنيه في كفه، وظل صامتًا لبرهة قصيرة.

. افتح يديك.

امتثلت أمره، فأخذ يعصر العملة بيده، فبدأت قطرات الماء تنزل في كفِّي.

. امسح وجهك بهذا الماء. أَمَرَ.

كان للماء تأثير سحري متجاوز كل ما أعرف، ذهب معه كل جرح كل ألم ، كل وجيعة كامنة، ذهب السأم الذي يسلبني راحة اليقظة.

. وهي يا سيدي؟ سألت.

هي الآن تمسح وجهها بهذا الماء، في منامها. وتخرج من آلامها.

(٨)

هاوية

أتَّكئ على هاوية، منسوجة من الخرافات والتهاويل، لا ظل، لا غيمة نديَّة.

محض خنثى في الأفق ترقص حول جثة متفحمة، بينما يتهشم صراخي في مرآة الأسئلة، أتأمل الهواء، السماء ، الوقائع المُرَّة، وعواء الذئب القابع داخل الشاشات الفخيمة، راعي الدسيسة، أسمع صدى ضحكاته، أرى ركض الخيول وراء الأحلام المستحيلة.

اشتعال القلب المضطرم وهو يحدثني بدون كلمات.

كل الأشياء الآن اختفت في الذكريات الأليمة. أرى بلادًا بعيدة تناديني، والمسافات سرادقات متناثرة، وللحزن سطوة الجنون.

(٩)

حكمة الكاف

الكاف

كون، وأكوان، وكن فيكون.

كائن يكتوي بنيران الجوى، مكتفيًا بالنَّذر اليسير، يكفي نفسه ركاكة الكلام، وتعرجات القول، لا ينتظر سوى فيوضات الكريم.

. صعوبة امتلاك الزمن أربكت المتشككين.

. الكبريت لا يقع إلا في أيدٍ حكيمة، حتى لا يشتعل العالم.

الكبير يطوي كشحه عن الصَّغائر، ويعلن تفرده مشاركًا في محاكمة المعنى عندما يستغلق عليه سؤال.

. الكل مهجورون.

كثيرون يتركون آثارهم على الماء، ينقشون بحمق يفوق العادة، ثم يركضون بعدها، وتعصف بهم الريح، لا شكل لهم ولا ذكريات. خطوهم الواهن على دفاتر التاريخ رهن الانكماش.

ـ كأس المحبة لا يترك المتيمين سكارى كغيرهم، مفعمين ببكاء صامت، فقد أصبح ممكنًا استعادة الحياة، عندما لا تخفي في قلبك مكنون سرِّك، وتُطلع عليه الأقربين.

بُحْ لمن اصطفيته بكلمة سحرية مختومة بالكاف.

قل له:

. أحبك.

ينهض معها الأمل المتسلل من كُوَّات صغيرة، المتكوم داخلك كشعاع يرغمك على الامتثال، نافيًا البروق الكارثية، التي تكفي لإرعاب قبائل شجاعة تسكن غابات روحك.

دينامية القلق المركب تبدد كينونة مهيضة، وتدفع إلى استحضار كل الكبوات السابقة.

إنها حكمة الكاف.

الكنز المطمور بين الضحك والبكاء في كل مكان.

(١٠)

حُب

الحب الساكن في الدروب المجهولة، والخلايا الغامضة، ينمو لا مرئيًّا في الهدأة والسكون، يتصاعد قويًّا، منسربًا إلى قلبك، ينمو داخلك وأنت تدري، مدينًا بالشكر لتلك النظرات التي دقت الأبواب وفتحت طريقًا لاختلاجات الجسد والمشاعر المدوِّخة.

لمعة العينين عندما تصطدم بعينيها التي تنخفض سريعًا، ثم ترتد أكثر إشراقًا، أكثر لمعانًا وتألقًا، الأشياء عصية التفسير المحببة دائمًا، التي تفاجئك، وتجعلك تبلل الشراشف في ليالي وحدتك. الأحلام، والخيالات الباذخة، تأنقك المثير للاهتمام، تماهيك في نسيان الألم.

لكنك قيدت مشاعرك، جعلت تتوقف، وتتراجع خطوات كثيرة، منزويًا في عزلتك، متنازلًا عن جسارتك، عندما علمت أنها مُهرة أرستقراطية طليقة، تقطن أعالي المدن، مستقرة في ملكوتها. وأنت مَعي في خُصٍّ صغير، شاهد على تاريخ من العوز، تصغي إلى نباح كلاب تعوي بالقرب منك، باحثة بين القمامة عمَّا يسد جوعها، مبددًا في متاهات عشقك، مرتدًّا فيما بعد إلى خرائط واقعية تمتد فوقها دروب وطرقات بائسة.

(١١)

رائحة البن

خوفًا من الإكثار في تناول فناجين القهوة، تلك العادة التي تلازمني منذ صباي، وإضافة إلى عادات أخرى، تعطيني إدراكًا لقيمة الأشياء، وتؤكد ارتباطًا وثيقًا بأفكاري الذاتية التي تضرب في كل اتجاه على نحو فائق التركيز، يحتفظ بالعابر والسِّري ، أقوم بوضع علبة البن منزوعة الغطاء فوق مكتبي، فيتصاعد إلى أنفي عبق رائحته القوية. مضمخًا الغرفة بتوابله المخلوطة بمقادير معينة، هنا أكتب بمزاج رائق ومتمرد، لا يطمئن إلى شيء، أصطاد من بين هذا الأريج إيعازات، وأفكار مثقلة، يبدد البن مفعول وطأتها.

(١٢)

بَرد

قال:

. هناك، في الشوارع المحاذية للنَّهر، يغذون الخطى بثياب مهملة، شبه عرايا، تحت الجسور، وعلى أرصفة المدينة، وداخل عربات القطارات المكهنة.

يمضون بين الوجود والعدم. الحياة، والموت.

دائمًا بين التخوم الفاصلة، ينزفون أرواحهم تحت أبصارنا، دون سقف، دون غطاء، دون لقمة لا تكون من صفائح القمامة.

ازدادت نبرته حدَّة وهو يواصل.

ـ فلا تحدثني عن البرد، وشدة المطر، ودبيب أليتيك، وجسدك الساقط بين فخذي امرأتك، تحت غطاء صوفي، ودفء لا ينقطع.

قال ثم اختفى عن ناظري وهو يخفي دموعًا حارقة.

(١٣)

أزرق لازوردي

إنـه يتحـول إلـى لـون سـماوي زاهٍ، يجسـد الشَّـفافية والنقـاء، وهـو ينسـاب كضـوء سـائل فـوق الـورق، ملوِّنًـا الكلمـات بمجـازات اسـتثنائية، وإشارات لا تنتهي.

لون لا يقبل التقليد، ويميز دائمًا بين الاعتقاد الشخصـي والحقيقة، لمسـة الضـوء المـدهش التـي تنيـر الأحـلام بقنـديل سـحري، وتقـود إلـى أسئلة مفتوحة تبدو كإلغازات تحتاج إلى دهور، كـي يجد فضـوله العنيد إجابات عليها.

إنـه البعد الاسترجاعي لاحتواء كثير من الأشياء الضـائعة، التقاط مـا تـم هـدره فـي الثرثـرات الطويلـة فـوق كرسـي عتيـق بمقهًـى يضـج بـالمُنَظِّرين العتـاة، والفئران الصـغيرة التـي تصـيخ السَّـمع، ثـم تفر هاربـة بمـا تـم سـرقته مـن أفكـار تتقاذفهـا أفـواه الموهـوبين الحمقـى، والماعـات الأذكياء.

(١٤)

صمت

مستلقيًا إلى جوارها، مسندًا رأسه إلى صدرها العاري كان يحدث نفسه، مفعمًا بطراوة النهدين وطيبتهما.

في هذا النور الضئيل، أغلقت جفونها، وأخذت تنصت إليه مستنشقة عبير أنفاسه، كانت تحاول القبض على خيالاته المحلقة في أجواء المكان، وتضمها إلى خزانتها.

الصمت وحده، جَعَل يمكِّنها من التقاط الذبذبات السَّاحرة التي تخلو من الرَّطانة والعواطف الوحشية، ويعرضها لفيض من الأنسنة، والشَّاعرية التي تغلف أفكاره.

كان جميلًا. يتطابق مع صورته الناعسة، وجهه الطفولي المستغرق في السفر إلى فضاءات بعيدة، ونائية، متتبعًا آثار الأشياء في الأشياء.

كانت جميلة، هي أيضًا، وهي تطل على بحر تتجاوز جزائره حدود العالم الضَّيق، بحر هادئ، يخلو من الرِّيح العنيدة.

مع انهيار الخيالات المجنحة، بدءًا يتلاصقان، يندمجان لصهر هذه الفتوحات المتخطية للزَّمان والمكان.

كانا يستعدان للحياة في عزلة مطلقة، كانا يفكران.

(١٥)

خجل

الشَّاب الذي أحرجته نوبات تلعثمه أمام تلك الملامح المبهرة، والتناغم الذي ينسحب إلى كل تفصيلة في كيان تلك التي تتحرك، مثيرة حولها عناصر الإثارة الدَّافعة إلى المحبة والوله، مخترقة جوهر انفعالات هؤلاء الذين يبحثون عن بطولات تراجيدية.

اهتزَّ تمامًا، وهو يواجه جمالًا غير قابل للاستيعاب، لامرأة تهمي مع نسائم الفجر، وهي تعبر المسافة إلى اكتمالها الخالص، وراح يركض هاربًا، وهي مذهولة، بعدما حاولت مساعدته، وفتح نوافذه المغلقة، يركض، متمزقًا بين أضواء وظلال، وحدائق لذَّة، تاركًا كل شيء: الدهشة، والحب. ونشوات إعجازية.

يركض والدُّموع تفر من عينيه، تتطاير إلى الفراغ، وهو يجهش ببكاء صامت، متأرجحًا بين الحياة والموت.

(١٦)

خارطة الماء

على

صفحة الماء كان يرسم خارطتَه

وهو يفتعل الطُّمأنينة.

ثُمَّ

غاص في الأعماق طويلًا.

(١٧)

فُقدان

هذا الفقدان للعالم الواقعي، للصَّوت السماوي، للأشياء الجميلة، لسلام العاشقين، قبيل انبلاج الفجر، عندما تزحف الرَّغبة إلى العيون الوسيعة، للهاربين في بستان منعزل، حيث تطير الأجساد، وتغتسل في ماء الحب المنهمر.

هذا الأرق، أمام انقطاع الزَّمن.

أمام تفجر الذِّكريات الأليمة.

أمام دموع جريحة، مؤججة بنيران مرتعشة.

أتوقف بين فراغين:

ليل يقذف بي في متاهات تمزقها العتمة، ونهار تحتويني آسرته لساعات طويلة، كميِّت خارج مدارات الزَّمن، محطَّمًا بالحب، وبقلب مضطرب.

(١٨)

ارسم لي لوحة لا يوجد فيها جدار

روحها المنعزلة في زوايا الوحدة، تتفتح كل يوم على خديعة، ومفاجآت مُرة.

تفر منها الدُّموع في كل لحظة وهي تصغي إلى هواجسها، لم تكن تدري غموض هذا اللاوعي البصري المختفي خلف ستار التَّجاهل المنغرس في أعماقه.

كانت تريده معها، يصدان العتمة القادمة من الدروب البعيدة.

تقول له بمزيد من الرجاء والحذر:

ادخل إلى فضائي

أُكتب لي قصيدة

قل:

أحبك.

وارسم لي لوحة لا يوجد بها جدار.

إنها تركض بأقدام رشيقة، تجاه أنهار غير مالحة، ذكريات ملونة، ونداءات بديعة، ترى في لحظات الصحو أحلامًا مستعارة، ينقلها ناسجو هذه الأحلام من بشر آخرين، وكائنات مقدسة، عبر الاستنساخ، والنقل المنفتح الذي يجعلها تبدو كعمل فني مصقول ومتقن، مرتبط بالتَّأملات، والأفكار الشَّاردة في فضاءات بعيدة، كانت هذه الرؤى تضيء ملامحها، وتبدد شحوبها الواهن، المصبوغ بالوحشة والأسى.

(١٩)

القديسون وسيدة المطبخ

تخبرني بنوع من القلق عن أشياء غريبة، تقول وهي تداري حرجًا بالغًا:

. لا أخاف دخول المطبخ.

رنَّت ضحكتي في الفضاء، وقلت مندهشًا:

. ماذا؟!

لكني تذكرت على الفور هذه الأفكار السوداوية التي تخايل النِّساء عند وقوفهن أمام أحواض غسل الصُّحون، تلك الحوارات الدَّاخلية المتشائمة، وتوترهن هناك بدون أسباب مفهومة.

انكمشت السيدة في نفسها، ذابت في حيرة قاتمة.

. لم يصدقني أحد، أعلم ذلك.

ثم أضافت

عندما أقوم بهذه المهمام الصَّغيرة التي تمارسها كل إناث العالم، كأمر بسيط، يلتف حولي قديسون صغار، يقومون بمساعدتي، تنظيف

كل شيء، رص القدور والصحون والأكواب، تحويل المطبخ إلى منتجع صغير، مفتوح على كل ما هو مأهول بالمدهش والمثير، حتى لا أستطيع الابتعاد عنه. في البداية كنت أخاف، وامتنعت عن الدخول لكن أحدهم جاءني. قال لي:

. لا تفعلي شيئًا، اجلسي فقط بيننا، كانوا يتقافزون حولي، يعملون بمرح طفولي، أصغرهم يذهب وراء البقاع المجهولة، يأتي بأشياء منسية ضاعت من ذاكرتي منذ زمن بعيد، إنهم يحدثوني عن والديَّ، يطمئنونني عليهما، يتابعون معي وصول أبنائي إلى مدارسهم، وكذلك عودتهم.

يخبروني عن مكان زوجي، ونزواته المتعددة، يكشفون لي الحقائق الكامنة خلف الأكاذيب المنشورة في الصُّحف.

حدثتني عن أشياء كثيرة، وأنا أتابعها.

. والآن.

ـ الآن. أقضي يومي داخل المطبخ، وأفكر أحيانًا في المبيت داخله.

(٢٠)

في هذه المدينة

هنا

في هذه المدينة

ينظر الحلَّاقون إلى قدميك،

ويتأمل ماسحوا الأحذية رأسك.

(٢١)

الأشياء الأكثر جمالًا

يتذكر جيِّدًا، ليلة طويلة من ليالي الشِّتاء التي سهر فيها حتى الصَّباح، مستمتعًا بسكون الكون، وخلو الشوارع من الصَّخب وإزعاجات البشر، يتذكر اللحظات الفارقة، واستغراقه في تفكير متواصل، وموضوعات مرهقة، محاولاته المترددة لتحويل حياته إلى وجهة أخرى، والتخلي عن كبواته السأَّبقة، انشغاله باستخراج المعنى من اللاشيء، تحيره أمام سيولة العالم، والوجود الأبدي، تحويل كل ما لا معنى له إلى شيء مسكون بالمعنى واليقين.

في هذه الهَدأة، كانت نظراته القلقة تتأمل كل شيء تحت وقع تفكير مزدوِج جعل يتواشج في طرح أسئلة مربكة، أخذت تردم فجوات عميقة في ذهنه على نحو غريب.

إنه الليل العميق، والصَّمت الملموس، والصَّلابة التي احتوته، وطردت عنه بوادر الأرق والانفعالات المتعالية وهو يتساءل حينها:

ما هي الأشياء الأكثر جمالًا في هذا العالم؟

(٢٢)

على باب الوطن

صديقي الذي كان أكثر سوفسطائية من بروتاجوراس، المنزلق دائمًا إلى معارضة كل معارض بردود لا تحمل أي قيمة فلسفية رغم اعتقاده بأنه أحد كبار مثقفي العصر، بدأ في التحول المفاجئ على غير عادته، شاركني حب الوطن على نحوٍ راديكالي مذهل، صار ثوريًّا غير هيَّاب، تعلو هامته أفكار مزلزلة، وكأنني نفضت عنه تراب الوسن، كاشفًا عن روح أخرى غير متيبسة.

صار ثريًّا، لديه سيارة فارهة، ويظهر في الفضائيات مرتديًا أفخر البدل، متحدثًا بلباقة، وكلمات فخيمة عن الأعداء والخونة وهو يتقاسم غنيمته مع خلية مدربة.

وصرت أنا أتجرع مرارة الهزيمة، وأتآكل عندما تطاردني صور الشهداء والجرحى، شحاذًا منفيًّا في عزلته، مجنونًا بحب الوطن.

(٢٣)

رسالة

يا صديقتي

لا تسيئي الفهم، فأنا متيم بصفائك الرُّوحي، بوسامتك، بتلك النغمة التي تجمعنا، بانحيازاتنا إلى أشياء كثيرة في هذه الحياة.

فارفعي عينيكِ الجميلتين، الشُّجاعتين، وتقدمي.

(٢٤)

خيال نازف

الزَّمن، كتلة تتناقص لحظة بعد أخرى، وقت ينسحب بلا شفقة.

وهو ما زال يبحث عمَّا تصور أنه رآه هناك، موجودًا في ثنايا الحلم، منطويًا على ذاته، على حقيقة سرِّه الموغلة في القِدم، كابحًا خوفه من العودة إلى البدايات المرهقة، اجتراح الصَّمت، مقاومة النِّسيان، الاستخدام اللماح للذَّاكرة، إعادة بناء العالم، وترتيب حيوات مصغرة خارج أحلامه، خارج خياله النازف الذي لا يكف عن إنتاج مشاهد وحكايات وصور.

(٢٥)

وميض

هذا الجسد اللامس، واللاملموس، عندما تقبض على فراغه تشعر بأن هناك رغبة عارمة تنهض في أعضائك، تداعب خلاياك، تعتصر جمرك المتَّقِد، هي سحابة تمر بين كفيك، وأنت تركض وراء سديم من التوترات، ملتقطًا كلمات تستشعرها، وتفك مغاليقها وحدك، إنها ترتحل إليك كل مساء، منقذفة بوميض لا يكف عن التجدد، فلا تستقبلها مرتجفًا.

(٢٦)

وحيدان

ما زال بياضها الشَّاهق يبرق في عيني، وسحاب الأفق تتطبق رماديته فوق الأزرق الثائر هناك في عمق البحر.

كنا وحيدين، على الشاطئ المهجور، نراقب حركة الموج، نستمع إلى هديره الثائر، وهو يرتطم بالصُّخور، عنيفًا غاضبًا.

ما زال لديَّ وقت بعد خروجنا من الماء كي أنظر إلى عريها اللاهث وتفاصيلها السَّاحرة.

هي البحر، في أحواله، واضطراباته، وأنوائه المتوقعة، وأنا الغيم الذي يحتويها، ويضمها إليه، واضعًا على القباب، فنارات صغيرة لفك مغاليقها تحت الضوء الخاطف، ولحظات النَّشوة العارمة.

جسدها الرهيف يحلق عاليًا، غائبًا في لذة إستاطيقية، وأنا أرسم خرائط العالم، وأطرز فوق نهديها، مفعمًا بالهذيان، والعواطف اللاهبة، لا شيء يعلو مهارات أصابعي العابثة، أو يوقف فوراني، سوى صرخاتها الخرساء، الموحية بالمكوث والتمهل فوق هذه الرُّبى.

(٢٧)

كرنفال

كانت تتمايل شاردة، كفراشة تسبح في حدائق بلا مدى، ارتعاشات محمومة، وانفعالات شعرية باذخة، مأخوذة بحنين قاهر، وسعادة غامرة.

إنها المرة الأولى التي يتنقل فيها من الكلام العاطفي، قافزًا إلى عاطفة الأفعال، في تلك اللحظات، بدا متورطًا، وخبيرًا على نحو غير قابل للتَّصور، استطاع أن يطلق الرُّوح الحبيسة داخلها، وأن يجعلها رهينة انبهار مدوِّخ.

من قبل، كانت تميل إلى الاعتقاد بأنه تمثال صخري جميل، يميل إلى الحب العذري، والامتثال إلى أفكار عقيمة، يكره تشابك الأغصان، ويجهل التحديق إلى العيون في أثناء الصمت الذي يغطي تصاعد الرَّغبة.

كان كائنًا آخر، يجيد ما يفعله، لكن برغبة خجولة، مذهلة في تحركاتها، جعلتها تشعر بسطحية أفكارها، وتواضع خيالها، الذي لم يصل يومًا إلى نصب سيرك ذي طابع كرنفالي، تدار فيه كل الألعاب الخطرة، والفاتنة، عبر سحر المحبة، والتعبيرات الغامضة، يتصاعد بها إلى عوالم أخرى، فريدة وغير متوقعة، تدفع عنها هذا الوهم المتنامي،

والارتباك القوي من فكرة الانفصال العاطفي عن جسد أسطوري، كانت تظنه خامدًا.

(٢٨)

نـقـود

وجدته مزروعًا أمامي بغتة.

. معك نقود؟ سأل.

لم أرد، مذهولًا من جرأته، فأنا لا أعرفه.

عاود السُّؤال

. معك نقود؟

. لا.

قلتها كي أتخلص منه، بعدما ساورني القلق، وإن كان مظهره لا يعطي انطباعًا بأنه متسول، فهؤلاء يطلبون مباشرة، لا يستفسرون.

. أكيد معك نقود. واصل إلحاحه.

شعرت بالغضب، وتحركت من أمامه قبل أن أنفجر، سار ورائي بضع خطوات، ثم نادى:

. أستاذ، أستاذ.

توقفت مضطرًّا حيال نداءاته المتكررة، كان لحوحًا مضجرًا.

. ماذا تريد؟

. لا شيء. قال بهدوء.

ثم أضاف وهو يمد يده بمبلغ كبير:

. تفضل.

علـى الفـور، شـعرت بالارتبـاك، وتحسسـت جيـوبي، أخرجـت حافظتي، وقلبتها بين أصابعي، كانت خالية.

يد الرَّجل ما زالت ممدودة، وأنا أتراجع مترددًا.

أخيرًا تناولت النقود، كانت تلك التي ألقمتها حافظتي عند خروجي من البيت، انصرفت مسرعًا لأبتعد عنه، سيطلب مني مكافأة، هكذا تصورت.

بعدها بساعات، مرت سيارة متمهلة إلى جواري، أطل منها وجه أعرفه، وجه الرجل، كان يشير إليَّ بيده التي تحمل النقود ذاتها وهو يرسم ابتسامة غامضة، قبل أن يختفي تمامًا عن ناظري.

(٢٩)

ألماسة

في كفه ألماسة لامعة ومصقولة، نورها الخاطف يأتلق تحت الضوء، ويدور في كل اتجاه، لكنه جائع، لم يذق شيئًا منذ يومين، ذهب إلى أول بائع طعام في قريته الصَّغيرة، النائية عن العالم.

. أريد طعامًا وليس معي نقود.

سدد الرجل إليه نظرة صارمة.

. اذهب بعيدًا.

حاول مع آخر، لكنه صده.

. لا يوجد طعام.

منهكًا وممرورًا، دار على كل القرى، يريد قطعة خبز، لكن لا أحد تعاطف معه.

أين الأميرة التي أحضرت الألماسة، وأعطته مبلغًا من المال تبدد كله.

. هذه أمانة لديك. قالت له حينها.

. إذا أهملت فيها قتلناك. أضاف رجل من حاشيتها.

مضت، ولكنها تركت مراقبًا يتابعه من بعيد، ويتقصص أخباره.

الأميرة. أخبرها أحد العرافين، أن هذه الألماسة الخرافية العجيبة التي لا تقدر بمال، سيبتلعها واحد من البشر، ثم يموت من فوره، سيحدث ذلك خلال سبع سنوات قمرية، تبدأ من اليوم الذي حدثها فيه، وإذا لم يحدث شيء، فالويل كل الويل، ثم نطق بعدها محذرًا.

. سيدتي، هذه جوهرة مصنوعة بأيدي ملائك وشياطين، وقبس من نار آلهة غامضين يحلقون في أجواء أثيرية، وهم يحاولون الهرب من أبدية الموت، كلٌّ وضع فيها تعويذاته، وأسراره الدفينة.

ثم أضاف ونبرة خوف تتصاعد في نبراته:

. ابتعدي بها عن خزائن القصر، حتى لا يهلك من تحبين، أو تمر السنوات المضروبة دون ذلك، فيحدث ما يفوق خيالك.

قبل انقضاء اليوم الأخير بساعات قليلة، وصلت الأميرة إلى بيت الشيخ الفقير، وجدته ميتًا، وحوله نفر قليل من قريته.

استفسرت عمَّا جرى، ردَّ أحدهم: "لقد ابتلع قطعة زجاج فأردته قتيلًا"، فكرت سريعًا، ثم قالت:

. سآخذه معي، أدفنه بما يليق به.

في الطريق، وفي أثناء عودتها، قامت الحاشية بانتزاع الألماسة من أحشائه، ودفعه إلى الصحراء جثة شائهة.

(٣٠)

تكرار

على بعد خطوتين، كان يبكي وهو منطرح على الأرض، بائسًا، منسحقًا، أنفاسه تلامس التراب وهو يتجرع مرارة هُويته.

هم أيضًا، دموعهم تنهمر تحت شمس حارقة، تضيء النهار على نحو جلي.

ثمة تواطؤات محمولة بواسطة الريح تصل إليهم من بعيد، فالأمر تم تمريره منذ فترة غير قصيرة، لكن هروبه الماكر داخل خلاياهم، والانكشاف الذي بدا مجرد أمل لا بد من العمل على بلوغه، قام بدفع الزمن مرة أخرى.

في النهاية، صورة مجسدة، ستعاود التكرار، تخطف منهم واحدًا بعد الآخر، وهو ذاهل عن مواقفهم.

(٣١)

غيوم

ثمة حزن يتعلق بي، يسبح في أوردتي، يجعلني أحن إلى البكاء مع هذه الغيوم الكثيفة، والضباب المستريح فوق أهدابي.

تهزني رياح الخريف. تسقط أعضائي رهينة التيبس، التراخي، الخطو الكسول. أطل على العالم بخيال زائل، لا أقطف أقحوانًا، لكني أصير رانيًا إلى مدن مخربة، تعسًا، متعثرًا في شباك الموت.

كل شيء مر، فاتر، ومنذور للعدم، يؤسس للخسارة، والهزائم الثقيلة.

كل شيء مر، وأنت ترخي أجنحتك للشقاء بعد فقدان براءة الطفولة.

(٣٢)

الرجل القادم من الجنة

لم يكن سوى جسد يتحرك، يشغل مساحات خجولة من الأماكن التي يمر بها، عابرًا فراغات مقبضة تخفي نوعًا آخر من الحقائق تحت قشرتها اللينة، متعثرًا في عذاباته مثقلًا بالأسى على كائنات لامرئية، الزمن يخترق ملامحه، يبدد لديه كل معنى للفرح، يسحبه بعيدًا عن العالم، ويزرعه في واقعه التعس.

هي الحرب، أطلت على مدينته بالقذائف والصواريخ، بالبراميل المتفجرة التي تسقط فوق الرءوس بشراسة مذهلة، لعلعة الرصاص، وهدير المدافع لا ينقطعان، يجبران المرء على الإنصات برعب متكاثف، وتجعله يقيس المسافة بين موته والبندقية.

عندما رأيته للمرة الأولى، كان يسأل عن عمل بلهجة شامية محببة.

. استرح. قلت له.

. أنت من سوريًّا.

. نعم.

كنت أتابع المأساة كل يوم عبر الشاشات بتوابعها الأشد قسوة، المشردون في المنافي، والمشاهد الكارثية.

حدثني الرجل عن معارك جنونية، صراعات لا تنتهي، لا تعرف من الخاسر، ومن المنتصر، من يحارب من، ومن يساند من. ساحة كبرى، ميدان رماية مفتوح على العالم، من يدفع ثمن هذه الأسلحة ويبخل عليهم بالطعام؟

حكى عن دروب صباه وشبابه، عن أيامه الصافية.

سوريًّا في مخيلتي هي الجمال، بداية العالم. أول الحب، تذكرت يومًا توقفت فيه أمام مكتب سياحة وسفريات بوسط القاهرة، حينها أوشكت على السفر إلى هناك، الذوبان في أرجاء الشام، تذكرت الفتح الإسلامي، كانوا يرغبونهم في الدين، واصفين ثمار الجنة والحور العين، فكانوا يرددون:

. كل هذه الأشياء لدينا.

سألت الرجل القادم من الجنة:

. لماذا لم تحضر معك أبناءك؟

لقد ماتوا تحت الأنقاض.

قال، ثم انفجر منهارًا في بكاء صامت ومرير. أيقنت معه أن العذاب هُوية عربية.

(٣٣)

متاهة

تائهون في دروب مبهمة، والنساء تسح الدموع في ظل عرب يتنقلون من البر إلى البحر، من البحر إلى السماء، الماء يأخذ حصته، والحدود، والرصاص، في قسمة عادلة.

مشهد المقيمين في حِل وترحال، عابرين الجحيم إلى الجحيم، يتجرعون حظل عروبتهم، يسورهم المحو من كل اتجاه، والقانتات ينتحبن على أطفالهم الصغار، مشهد يبكيك.

للجاثمين فوق العروش، ومحترفي السياسة وجوه مدماة، قلوب من بازلت وكَراسيٌّ منسوجة من جماجم وضلوع، والشعوب طريدة، تصرخ في فراغ معتم عند المضايق، مأخوذين برعدة القبور، لا أمل في العودة إلى إيثاكا، لا رغبة في العودة إلى إيثاكا.

الخوف يتقدم على أرض مخيلتهم كشبح قاتل، يخطف سوسنة الحياة، يثقب أجسادهم، راسمًا غربالًا ممزقًا فوق جثث فقدت هويتها.

(٣٤)

عـودة

عدت، وعادت

أنا من غيبوتي

وهي

من شهر العسل.

(٣٥)

سيليكون

مهووسًا بالشفاه، والخدود الموردة، الهذيان الذي يغزوه وهو مستلقٍ بين الطنافس، ينظر إلى صورة فوتوغرافية لأنثى تملك هذه المواصفات، يبدأ في اجتياز الحلم، يهبط رويدًا، رويدًا، مستنزفًا من الإفراط الحسي حيال الصورة. الشفتان الغليظتان، تسدان عليه الأفق، يلتقطهما في عتمة خفيفة تلون خياله المجنح، قاطفًا ثمارًا لم يدركها في أيامه الغابرة، شيخوخته النشوى تتهادى إلى عشق فريد، وهو يتسلل بخفة، ويغمر جوانحه، مواجهًا تصدعات الزمن.

إنه الوحيد في هذا العالم الذي يعشق نساء السيليكون، ويمضي معهن بخطوات منعزلة، وقلب مضطرب، مترنحًا في العذاب، وآلام الوله. حتى تشققت شفتاه حيال هذا الحب الافتراضي، وعمليات التجميل الخادعة.

(٣٦)

متاريس

في عنفوان بؤسِك، وجراحِك المثخنة، داخلكِ المبقع بالظلام، انسلاخكِ عن العالم، وحيدة بلا أليف، كان هناك، جوارك، دون أن يدنو منك، تعس أيضًا، ومترع بأحزانه، يتابع رفرفة جناحيك المهيضين، من غصن إلى آخر.

لا شيء يوطد عالمك

أو

عالمه

لا شيء.

فوضى، وهروب فردي قاتل، توترات الزيف المكشوف لمداراة الهزيمة.

لا أحد يستطيع التعرف بسهولة على ما بينكما من اختلاف وتقابل، كل شيء مستمر في النمو والتشعب.

كنت بحاجة إلى تسامح أمومي، غير متاح في اللحظات الجارية، ضباب يسد الأفق، يستريح على أنفاسكما.

رهينة أنت، لغيوم التذكر، لهواجس مبهمة وهو يكابد لاستنشاق نسائم حرية، بخلايا مشحونة بالترقب.

ربما تجاوز هذا الواقع ومتاريسه الشائكة، وتلك الهموم القائمة بلا حل، فثمة خصوم لا يريدون لكما العبور الآمن إلى مناطق الأمل.

(٣٧)

نوستالجيا

معتمدًا على ما تبقى من سمعته، وصيته الذائع، راح ينبش الماضي يبحث عن ملاذات منيعة من السحر والأحلام، ربما غذت لديه شعورًا بعدم العجز، أو برقت فكرة صاعقة في ذهنه وأخرجته من حالة الخمول، مجددة خلايا كانت في سبيلها إلى الضمور.

الأمهر، الذي يحاول اختراق الزمن الباطن الذي لا بداية له، ورؤية ما لا يستطيع أحد رؤيته، ناقش اللاهوتيين عن اللانهاية، والكائن المحدود، متقلبًا بين المسرات، وألق المعنى، مندفعًا نحو المستحيل والمطلق، نحو وهم الكمال، والمحظورات، حتى بات رهين الحيرة، حبيسًا في متاهته، يتساءل متألمًا:

هل عاقبته الآلهة عندما ثرثر مفاخرًا، معلنًا عن سرِّه؟

(٣٨)

إليهِ

يأخذني الرعب، خوفًا من انطفاء قناديلك، روحك الدافئة، ركونك إلى الخمود. كنت أقوم بإشعال شموع معطرة، متعلقة بالهدوء الفاتر، أصيخ السمع إلى ذبذبات روحك، وهي تخاطب النجوم، أطير وراءها، إلى الأقاصي، أتابع تعرجاتها وهي تبحر في غيوم زرقاء.

الحب جرح لا يندمل، يتصاعد كل ليلة، لاهثًا وراء أفكار مستحيلة.

يرهقني الأمل، أن تقوم من مرقدك، وتبارح هذا الفراش اللعين، تنهض مستعيدًا صفاتك الطيبة، وامتيازتك الراقية، أن تحطم نُذر موتك التي قد تسلمني للجنون.

(٣٩)

منعطف

ستجده هناك، واقفًا، ليسد عليك الطريق، يحملق إليك بثبات نادر، صعب تجاهله. حاول المرور إذن، تسلل من جواره، وتأكد أنه سيسعى إلى إعاقتك دون أن ينبس بكلمة.

أعلم أنك ستقفل عائدًا، ساعتها، سيتركك وشأنك، لكن عنادًا غريبًا سيتملكك، ويجعلك تعاود المرور مرة أخرى، وتتقدم تجاهه وأنت تنهره قائلًا:

. ابتعد.

لكنه سيرد عليك بهدوء:

. عُد.

في هذه اللحظات سيطفو إلى سطح ذاكرتك شيء مشابه، تستعيد معه تلك الملامح، وتنظر بعدها من فوق كتفيه، لتجد غبارًا ودخانًا، وأشياء تتشكل في هذا المسرح الخلفي، أدر بصرك جيدًا، تجول بعينيك، وتأكد من الأمر: أي عالم هذا؟ وأن ما يجري أمامك الآن خيالي أم واقعي، فقد دارت كل هذه النهايات . من قبل . في ثنايا أحلامك، وغفواتك المتألمة.

(٤٠)

رُضاب

كان مغويًّا، وهو ينتقل من فمها إلى فمه، محملًا بتعاويذ الحب المذابة في رطوبته، وبكلمات غامضة مهموسة، مشتقة من لغة خالدة، تنقل رسائل لا تخطئ.

الجسر الذهبي الذي يربطهما بالحياة، ربما لا يستطيع لاهوتي العقائد إيجاد تفسير منطقي له، أو تحليل ماهية هذا اللعاب الذي يخترق الحصون، ويهدم الجدران الصلبة، كاتبًا البقاء للقُبلة المصحوبة بالدوار والخدر، ينهاران تحت اشتهاءات هذا الماء المقدس، صراع شهي يدور بين روحين، لا حاجة إذن للتوقف لالتقاط الأنفاس، حتى لا يهبطان إلى الأرض، ويبدءَان البحث عن الدنيوي، والألم الذي يمنع دخول الهواء، معطلًا امتصاص كل قطرة من هذا الشهد المذاب في أفواه متيمة.

(٤١)

حيرة كائن

أنت، هناك، فائض عن حاجتهم، محض هواء فاسد، غبار طفيف يتوارى في الغمام، مرورك الخاطف يعتصر قلبي إلى نهاية قصوى، وتألُّم غير محدود، فأنت لا تترك أثرًا في المكان.

لا أتهمك بشيء، فأنا غير عنصري، غير طبقي أيضًا، ولكني أتحدث عن كائن لا يتصدى للواقع، أوقعني في شراك عديدة، جعلتني أفكر كثيرًا.

هل وجوده خيالي، أم وجود فيزيائي؟
أو بضع ذرات من مادة عجيبة، لا تنعكس عليها أوضاع الحياة.
كثيرًا ما حاولت تجاهل ظهورك الشبيه بالغياب.

لا تبتسم هكذا، بسخرية ومرارة، أعلم أنك ضجر، ولن يروقك شيء. لماذا لا تحاول الآن، وتعود مرة أخرى إلى قبرك، ربما تغير الوضع جذريًّا، واكتشفت ملمحًا آخر، بعيدًا عن فوضى الأفكار الغريبة، فنحن نعيش قَدَرًا أكثر غموضًا من ذلك الذي فررت منه، تاركًا عالم الفناء من أجله، فكل الأشياء تضيق بنا، وتقبض على أنفاسنا، حتى ونحن نمارس نزواتنا المحببة.

عُد الآن، حتى لا يضيع منك الزمن، وتصير بلا هوية محددة.

(٤٢)

المحطة

عندما التفت وراءه، وجده، كما توقع، تلك هي صورته المتخيلة في ذهنه والمحفورة منذ زمن بعيد، الطيف الذي يمر أمامه عندما ينتهي من سعاله، وكأن هذه اللمحة الخفيفة جسرًا يمر عليه ويتكاثف بعدها كسحابة عابرة.

هذه المرة شعر به جالسًا خلفه في الحافلة، لم تأخذ الدهشة وقتًا طويلًا كي ترتسم على ملامحه.

نظر إليه قائلًا:

تعالَ إلى جواري.

الطيف المتكاثف، صار أكثر تشكلًا، زادت ملامحه وضوحًا.

خاطبه مرة أخرى:

. لماذا جئت الآن؟

. جئت آخذك معي. أجاب.

عند وصول الحافلة إلى المحطة، نزلا معًا كصديقين حميمين، ثم انصرفا في هدوء.

(٤٣)

سيد الانتقاءات الجميلة

متعرجًا بين الظلال، ساعيًا بلا ألم فيزيقي، لانتزاع الأشياء، والاستحواذ على ما يحب، كان سيد الانتقاءات الجميلة يمضي وسط ليل حالك وطويل، لا مبالٍ بأي صيرورة قد تؤدي في النهاية إلى الخسارة والهزيمة، ميال إلى نزعة فاشية لاستخلاص ما يريد، اقتناص فرائسه بذكاء محض، ورغبة عنكبوتية رهيبة، يخلط شيئًا من المحبة بشيء من الانتقام الدفين، ثم تتقدم باخوستيه، تسبقه بخطوات كثيرة، محمولة على أجنحة العاصفة بخيال خصب وأفكار جديدة.

يتقدم في نهم، طالما هناك ثمة فرائس بيضاء، يستحيل تصورها، تنمو في حدائقه الوسيعة، مطأطئي الرؤوس، لا تؤمن بكلام اللاهوتيين، موردة كتفاحات شهية، بين أسنان جد متينة، ورغبات شيطانية.

(٤٤)

مونولوج

ـ فلتكن أكثر ترفقًا، ولنمنحك غمامة على عينيك، حتى لا ترى الطلقة تخرج من فوهة البندقية إلى منتصف جبهتك، ولنحضرن أمهر الرماة، كي لا تنحرف قيد أنملة، كن ثابتًا، لا تبتئس، هذه الميتة ستجعلك شهيدًا، وتحفر لك ذكرى، رائعة، ستخلدك، فهنا يحلم الكثيرون بالوقوف مكانك، لتلقى خاتمة مشابهة، أمام كل هؤلاء البشر.

ـ ماذا فعلت كي تتخذ نهايتك هذا الشكل التراجيدي، متوحدًا مع أساطير مدينتنا، واجدًا مكانة في هذه الديمومة، تنمو باطراد حتى تصبح تاريخًا مؤتلقًا.

. لا أحد يشفق عليك، إنهم يحسدونك.

في هذا المكان، سيقام لك تمثال، تتدفق المياه من تحته، لن يغيب عنك الضوء، سيغمرك النور في كل وقت.

لقد أطلعني عليه الفنان الذي قام بنحته، رأيتك في عزلتك التأملية، ذائبًا في تحرير ذاتك من عبودية الوهم، متجاوزًا القدرات الإيجابية للزمن، تمتد، وتنمو في العمق من وعيك، شعرت بك حقًّا، وأصابتني الرهبة أمام الإثراء النفسي، وهذا الفيض من الرضا في مواجهة الموت.

. لماذا لا تهرب إذن؟

تحت أجنحة الصمت، وتنجو بهذه الأشياء العالقة بذهنك، تتسلل بعيدًا، متلاشيًا تحت سماء أكثر عدلًا. لقد أعطيت أوامري بأن لا شيء يوقف خروجك من هنا، باب المدينة مفتوح على مصراعيه، والحراس يتناومون من أجلك.

. لماذا لا يداهمك الغضب وأنت تنصت إلى حقدي.

(٤٥)

وحدك

وحدك، تبحث عن الدفء في صقيع العالم،

عن الحقيقة في كومة حطام،

عن خفة تساعدك على التحليق والطيران،

عن سوريالية فائقة، وسديم من الأحلام.

وحدك، تحدق إلى الملامح التي تزاحمك في هذا الليل،

لتكرس نفسك للغرائبي والهذيان.

(٤٦)

حدائق التَّشَهِّي

كانت تنزف في كل ليلة، معذبة من فرط طفولته، وهي تقبض . بلا جدوى . على جمر ذكورته، تأتلق بدموع مكبوتة، وجسد متيقظ، تمسك بيده، في ظلام مهيَّأ، كي يغطيها بأعضاء دافئة، ربما حلت في الأفق حرائق التشهي، نيرانها المقدسة، وأضاءت ماؤها. تقوده كدليل مخلص لخارطة الجنة، حدائقها المزهرة، قدها الممشوق المعطر بالخزامى والنرجس، لكنه يقفز إلى النسيان، والنوم المبكر، منهكًا، وكئيبًا، مُلوِّحًا، بالوداع الأبدي، ومتسربًا مع الحب المتبخر، هو الذي مسه الجنون عندما رآها للمرة الأولى، يافعة وجميلة. ولمَّا كان أبوه لا يرفض له طلبًا، فقد زوجها به في الحال.

إنها الآن، تستقبله بوجه، خالٍ من النضارة والصبا وهي تلعن الفقر الذي وهبها له في يوم حزين بلا ذاكرة، ناثرًا أحلامها أدراج الرياح.

(٤٧)

ثمة صفحات ما زالت بيضاء

ستتبجس الآن، قادمًا من صمت الزمان

من لدن المجهول، من اللاكتمال.

فتقدم إذن، لنأخذ حصتنا من الظل، من الزهر

من نسيان العالم.

فثمة صفحات ما زالت بيضاء.

(٤٨)

مصير

كل شيء جيد يسقط كليًّا، دون أن تجد الوقت لإعادة ما تم تهديمه، ثمة أزمات تقترب بعنف، تسمم النفوس، فلا حرية أمامك بين خيارين سيئين، ستختار الأسوأ دائمًا، وعلى نحو غريب.

واقعيًّا، لا يمكنك التحدث عن إرادة تستعيد بها الذكريات الماضية، دون الاصطدام بكائن أقل مهابة، يفرض عليك أرشيفًا من الأفكار البالية والآراء المربكة، مثرثرًا بكل ما هو عديم الجدوى، عديم التأثير والفائدة.

لم يكن وصولك إلى هذه الحقبة، مشفوعًا بالحظ الجيد، ولم تكن الرياح مواتية، ثمة إيعازية تمر عبر الماعات خبيثة، تقود القطيع من وراء ستار سميك، تضخ أفكارًا سوداء، تزلزل صفاءك العقلي، وتدفع بك في اتجاه الفوضى، منفلتًا من يقينك، مسحوقًا بدوار العقل تحت كم هائل من الصخور التراجيدية وانحطاط الرؤية، لتركض في الشوارع، بنزاعاتك الشائكة، مصيرك التعس، عدمية العالم تجاهك، وتشاؤمك المنضغط، لتنتهي بعدها وحيدًا، مغتسلًا بالحزن والألم، يغطيك الظلام.

(٤٩)

روح هائمة

يراقبها وهي تتسرب ببطء، منفصلة عن الجسد المكدود، ينظر إلى غيمة تتكاثف، وتحاول المرور.

الليل، قشعريرة البدن، الخوف من المجهول، العتمة المنسربة في الخلايا، الخروج إلى الضياء، إلى البراح، والكون الوسيع، بعيدًا عن ضيق الجسد، والآمال المعطوبة، الدخول إلى أكثر المناطق استحضارًا للدهشة والذهول.

(٥٠)

هل أنت معي

. حتى الآن لا يقين، هل أنت معي؟ تسأل هي.

ثم تنزلق على أريكتها متخدرة، والأيام تنصرم.

. روحي تحلق في فراغ الغرفة عندما تكون إلى جواري، ألمس هذا الجسد وأشم رائحته بالغة التأثير. تقول.

الليل قطعة من الجنة عندما يكون هادئًا، وبلا صخب، ينصت فقط، إلى تلك الموسيقى المنبعثة من داخلنا، وهي تغني للبحر، والنهر، والطير، والسماء، والنجوم، بلا ألم، وبصوت حالم، غارقًا في ضوء نجمة بعيدة، بعيدة ونائية، ثم ترفع شعرها المنساب، وتربطه على هيئة ذيل حصان، متأهبة لطقوس إيروسية، مستحضرة بطلًا وأسطورة، ترقص في معبد وثني، أمام نيران مقدسة، تقترب من اللهب، تصطبغ بلونه الأرجواني، تتحول إلى قنديل يضيء داخله الزوايا المعتمة، يتابعها مستدفئًا بهذا الوهج، يدور معها في هذا العالم، وهو يجلس، مسترخيًا في هذه البقعة الساحرة.

. حتى الآن لا يقين، هل أنتِ معي؟ يقول هو هذه المرة.

(٥١)

باقة ورد

جميلة العينين.

أجيء إليك وحيدًا، بيدي باقة ورد، أضعها أمامك مرغمًا، أحاول أن أبدو وسيمًا، وأن أبدأ بهجوم متألق، أعرف مسبقًا أنه غير عادل.

الارتباك العاطفي، يقودني إلى التعلق بأهدابك، بجدائلك، بالوقوف تحت أشجارك، هربًا من صحرائي الموحشة، من الرغبة التي تتصاعد في دمي وأسمع هديرها الصاخب، من عالمي المتفكك، وخطواتي اللاهثة داخل دوائر مغلقة من الحيرة والتساؤل:

هل هذا العالم مهيأ فقط لبعث الآلام؟

جميلة العينين:

أتماهى مع النهر، مع المطر الحاني، لأروي عطشك، وأركض في فضائك، ربما جعلني الورد متساميًا، منتشيًا بذاتي، وبجمالك المفارق.

(٥٢)

اختلاس الهدأة

عندما فضت عنها الثوب الأنيق، وقامت بإعادته إلى الصُّوان، شعرت حينها بالفقد، وبأن هناك شيئًا ما قد فارقها، ارتبكت قليلًا، لكنها حاولت اختلاس بعض الوقت في هدأة مريحة، بعيدًا عن ضجيج الحفل الصاخب الذي عادت منه لتوها قلقة ومنزعجة، بلا أي سبب.

ربما غفوة قليلة، تستعيد معها توازنها. فكرت.

في نعاسها الحالم، الذي بدا ممتدًا، ولانهائيًّا، بادئًا من نقطة الخلق، سمعت مونولوجات متجاورة، دفاعات صاخبة عن خطايا لم ترتكب بعد، استمعت إلى نص تراثي، ورأت خواء عظيمًا، استيقظت بعده ونظرت إلى ساعتها، وجدت أنه لم تمر دقائق على بدء استسلامها للنوم، لكنها كانت مزدحمة بأحلام تكفي لسنوات طويلة كي يعيش المرء بوعي كوني مبني على الرؤى.

كان الصوان يرتج، حدقت إليه، تناهى إلى أذنيها خبطات يد رقيقة تصدر من الداخل، الصوت صادر من الضلفة التي وضعت خلفها الفستان، قامت بفتحها، فوجئت بامرأة فاتنة تقف بكامل أناقتها، ترتدي الفستان ذاته، ولكنها تشعر بالخجل.

. آسفة.

قالت بشيء من التردد، ثم واصلت:

. هذا فستاني!

نظرت إليها بعينين على كامل اتساعهما.

. كيف حضرت إلى هنا؟

. جئت لأسترد فستاني.

. إنه ملكي، لقد اشتريته بالأمس لحضور الحفل.

ـ أعرف ذلك. قالت، ثم وصفت لها المحل، وأخبرتها عن المبلغ الذي دفعته. فعلت ذلك وهي تخطو إلى خارج الصوان، ثم وضعت في كفها النقود التي دفعتها، قائلة:

. لا تحزني.

. أريد فستاني، لا أريد النقود. أجابتها بحدة.

يكفيك ارتداؤه ليلة واحدة.

ثم أضافت وهي تمضي، مختفية عن ناظريها:

. أنت الآن، لستِ أنت.

(٥٣)

مطاردة في أمشير

أمشير، وضع البذور، البرد القارس، الحر المفاجئ، المطر، الغبار، الوحدة، تجول الأشباح الحزينة في الطرقات، جلبة الأشياء الغامضة، غيمة الأسرار.

رغبات القطط في السفود.

قط يطارد قطة في مداخل البنايات، على الدرج المظلم، فوق الأسطح المهجورة، والأنثى لا تستقر قبل قبل مرور ساعات طويلة، ربما تستسلم على مضض، على تخوم مدينة أخرى، بعد جري متقطع لعدة أميال.

حينها، يتقدمان، كغريبين، أجبرتهما الطبيعة على أفعال غير ضرورية، شطح بلا شوق ولا رواء، فعل معذب.

يتفرقا بعدها بجدية لافتة، كغريبين أيضًا، بعد خلوة مؤلمة، دون أن يتركا أثرًا سعيدًا على الزمان، متساويين في عدم المتعة، كأنهما هاربان من جريمة نكراء.

(٥٤)

نعْسَة بملامح مثيرة

نعسة، ومثيرة للشفقة منذ أن ولدت في الظلام، دون إعلان عن حضور يدق أبواب هذه الإنسانية، عارية، ووحيدة حتى الصباح، تتلوى من الجوع ببكاء واهن، جريح ومتقطع، الأب المجهول هرب، تاركًا هذه الروح غير متألم.

الأم، كابدت وحدها، انصهرت فيها عذابات العالم، وهي تسكب الدموع فوق جسدها الواهن الهزيل.

كانت تكبر، دون تعجل، بصبر توارثته عن أمها المسكينة، تنتظر حلول الليل، الظلام الحالك، تنهض معها خلايا الذاكرة ولدغاتها المسممة.

عن بعد، كنت أظنها ملاكًا سعيدًا، يضيء الفراغات المحيطة به، وتتساقط منها الزهور أينما تولت، ملامحها شديدة الجمال، شديدة الحمرة، حتى جاءت ليلة مضيئة حكت لي فيها كل شيء، كانت تنصهر كشمعة وهي تواصل الكلام، تتلاشى مع كل رجفة تصدر عن ذكرياتها المعذبة، أسَّرت بكل ما لديها دفعة واحدة، قبل أن تنسل كشعرة رقيقة وتطير في مهب الريح.

(٥٥)

المآلات

بدأت المماحكات منذ اللحظة الأولى، بكلمات راعدة، تتصاعد بها نبرات مخنوقة بالتمرد، والدفاعات المشبوبة، كل شيء رهين الانفجار، حتى لحظات الصمت كانت أكثر إيعازًا، فهي مشحونة بغضب مؤجل.

الأمر يتوقف على من يلتقط الخيط ويوجه الضربة الأولى، واضعًا حدًّا لهذا الجدل، والعدوان الفطري. كلاهما يعتقد أن هناك مؤامرة، ويؤمن بعمق شديد، بأن الآخر يعمل على تحطيمه بإخلاص، مدخرًا له ميتة رائعة، موسومة بالجلال والمهابة.

لقد ظلا ساهرين، ردحًا طويلًا، بنشوة متذبذبة وعنيفة، متوهجين في اجتراح الحب والمساندة، وكبح الكلام الذي يولد الغضب، يواجهان الزمن بدفن أي ملمح صغير لعداوة محتملة، وبحرص يوازي أي عارض مفاجئ، ربما أثمرت لحظات الحزن القليلة عن انفعال ملهم كانا يقضيانه في مراسلات غزيرة العاطفة، مفعمة بالتوترات المحمومة، كاستعادة للاستحواذ الموافق لرغباتهما، وضمانة وحيدة للاستمرار، لكنهما أخذا ينصهران في غمرة الضياع، تحت رحمة العدم، والماهيات الشريرة، متناسين الوداعة واللين.

على أي حال، لا أحد يستطيع التنبؤ بالمآلات، أمام تلك اللحظات العسيرة، وإلى أين ستمضي هذه الأحداث المفتوحة على كل الاحتمالات، فكاتب هذه السطور يتخلى عن خياله هذه المرة مقاومًا رغبة عنيدة، فهي المرة الأولى التي يشك في حصوله على نهاية ترضيه.

(٥٦)

رهبة

رأيته قادمًا، يحمل وجه دقَّان كئيبًا وهو يقود "الترولي" المحمل بجثة مسجاة في سكون، تحت الغطاء الأبيض، حوله أسرة المتوفى وأصدقاؤه، يسيرون متساندين في الممر الطويل بالمستشفى، مخنوقين ببكاء، مرير.

كان الأكثر شعورًا بالمأساة، والأكثر تأثرًا بهذا السمت المتألم، والوقار الجنائزي. لا أدري ما الأخيلة التي تدور في ذهنه تجاه الموت، وتجاه هذه الحياة الملغزة، وحتمية الوصول إلى نهاية محددة سلفًا، مهما اختلفت النهايات، أي نبل هذا، وأي طوباوية.

إنه يبدو كمن عاين كل شيء، وتوصل إلى الحقيقة كاملة، وهو يمضي مطرقًا، حزينًا، متمهلًا في خطواته، دافعًا بالجثة إلى ثلاجة الموتى، يتصاعد من عينيه وعي كوني، ونظرات حاسمة إلى المجهول.

لقد جذبني إليه هذا السلوك المترفع، وملمح الإدانة الصادرة عنه، والموجه للقَدر، كأنه أحد الفيثاغوريين الذي يريدون إنقاذ الأجساد من الموت، ومن آلامها في الوجود الفاني، يريد عودة هذا الميت إلى الحياة ليمارس وجوده كإله مرة أخرى، وأن لا يغادر على هذا النحو المفاجئ.

رأيتـه عائـدًا، مترنمًـا بأغنيـة شـعبية شـهيرة، ثـم توقـف أمـامي قليلًا دون أن يشعر بي، أخرج من جيوبـه نقودًا كثيرة، قام بتجميعها، ليدسـها بعد ذلك فـي حافظتـه، ويشـعل سيجارة بنشوة بالغـة، مستأنفًا السير وهو يواصل الغناء، دافعًا التروللي الفارغ بحركات بهلوانية سعيدة وصاخبة.

(٥٧)

(لَيدي)

كنت جميلة، في بنطالك الجينز الضيق، وكنزتك الحمراء، وأنا أوجه مشاعري نحو نهديك المتألقي، فرحًا بمداعباتك الشقية، وأنت تضعين نظارتك الشمسية فوق فخذي، بعدما تلمسيه بكفك الرقيقة، ينهض تاريخ من البهاء، يظلل ابتسامتك، ولفتاتك، على نحو غير مرئي.

يومها، سعدت بخديعتك، حين وجدت أمامي فتاة يافعة، تنافس بنتًا في "ثانوي"، بشقاوة أربعينية، مسكونة بحيوية خالدة، جعلتني أنسى الجسد ونزواته، أنصت، فقط، إلى حديثك المنغم، منبهرًا من دقة ملامحك، مصدقًا تلك الأسطورة التي تتحدث عن انبعاث البشر المقدسين مرة أخرى، وتجولهم في عالمنا التعس، وأنك امرأة الفَجر التي تنشر السعادة والحب واليقين، في هذا الذي يرصد تشكلها من مادة الضوء عند اللحظات الأولى لهذا التحول.

صدقيني، كنت رائعة في هذا اليوم الطيب.

(٥٨)

ما لا اسم له

يمكنك فقط إدراكه، والإحساس به، لكنك لن تستطيعي لمسه أو اكتشاف مظهره الحقيقي، ربما تتكون لديك صورة تخيلية، تقترب أو تبتعد عن واقعه المتعين، لكن صعب الوصول إلى نسخة مطابقة.

كل ما هنالك، إصرار عنيد لا جدوى من المضي فيه، ومحاولة الإمساك بما يتعذر الإمساك به.

دعي كل شيء، تخلصي من تلك الصيغ المبلبلة، لا تتعلقي بالتشويه المهشم لنوازعك، الباطنة، فهو لا اسم له، منذور دائمًا للمدد، مشدود كقديس لتلبية نداءات خفية تصدر من أماكن بعيدة، ونائية، لا تصعد قط إلى الألسنة، ولكن تصدر عن القلوب المكلومة، سيتدفق في دمك باحثًا عن شجرة المصائر المنزرعة في دغل بري، يتوهج داخل كهوفك المتوارية في الأعماق المظلمة، فهو يأتي مع التحولات الروحية الطارئة، ونوبات الحنين، مع الوجد المتصاعد في الليالي المقمرة، يلتقط هذه الأشياء في أثناء طيرانه في المنعرجات الشائكة، يفرض حضوره السريع، مرسلًا الظل وحده، الذي يتكاثف بلا نهاية، مسكونًا برغبات عميقة، لإضاءة تلك الأرواح الممددة في العذابات والوهن.

(٥٩)

الكلمات

لا تركض في مكانك كي تنجو بمخيلتك من الجمود.

ابحث عن الشيء في ظل الشيء.

عن الضوء في عتمة الضوء

ولا تقلق.

ففي بعض الأحيان، لا بد من التوقف قليلًا، ثم معاودة السعي، حتى لا يضيق فضاؤك، ومداك الأرحب، وتنزلق من عدم إلى عدم.

يا أنت، يا من يجيش بالصخب والأسئلة:

كل شيء مضحًى به في هذا العالم، عدا القلم،

القلم مقسوم به من علٍ.

أن تعرف، ثم تتوقف قليلًا، لتفض الضجر، السأم، الكمد، قبل أن ترتحل مرة أخرى إلى رحاب من الدهشة والألق.

للكائن وجوه عديدة، ومكابدة.

عذابات وصمت، إكراهات استثنائية، عندما يتخلى عنك الكائن الآخر الذي يحاورك فوق الورق، اعلم أنه غاضب. جحيم أسود يخايلك، هابطًا إلى قاع المحيطات، ومختفيًا داخل كهوف غامضة.

تبتعد أحيانًا، وتنساك الفصول، وتظل وحيدًا، ومحجمًا.

لكنك في النهاية تذهب إلى مدينة الكلمات، سائلًا رب الكلمات:

ربِّي أغدق عليَّ فيضًا من محبتك.

(٦٠)

الأقل امتثالًا

منذ صباه الباكر، لم يكن مزدحمًا بالأشياء السالبة، والعناصر المذعورة، موروثات الخديعة والتملق، والعادات البغيضة.

والتقهقر أمام هؤلاء الصبية الذين تلتمع في أياديهم السكاكين والمُدى.

كان يدفعهم إلى بيوتهم باللكمات والحجارة الصغيرة، نازفين دماءهم، كاذبين على أمهاتهم بأنهم جرحوا في اشتباكات مع صبية غرباء.

الأقل امتثالًا، أمام الأشقياء المتناثرين فوق طرقات الحي، مسكون بالجسارة، ولا يتكيف مع طقوس الجبناء.

أمام الشرطي المتعجرف مع البسطاء.

لا تهزه الأساطير المصنوعة في سراديب مظلمة، أو الشعارات، وكلمات رؤساء الأحزاب.

لكنه مثل أي كائن فانٍ، رفيق صميم للوحدة، ينظر إلى القمر على امتداد الليل وشساعته، ولا يمتثل إلا لوجه حبيبته.

(٦١)

مندوبة مبيعات

البنت الجميلة. التي لا تزيد على تسعة عشر ربيعًا، قوامها النموذجي مخفي عن عمد مدروس تحت زي يحاول طمس ملامح هذا التكوين السحري وطمر أنوثتها، كانت تحمل حقيبة متوسطة، وبين يديها ألعاب صينية، وقفت قبالتنا.

. مساء الخير.

. مساء الخير. قمت بالرد، فهذه عادتي مع مندوبي المبيعات.

بادرتنا بالحديث عن بضاعتها، روبوت آلي يتحدث بلا توقف، وتضع أمامنا أشياءها الصغيرة، كثيرًا ما أتورط في الشراء، لا أحتمل نظرات الخجل في أعينهم وهم ينصرفون دون بيع.

كانت فائقة الجمال وهي تحاول مداراة هذا الألق الاستثنائي الكامن في عينيها.

كان يجلس إلى جواري مجموعة من الأصدقاء، أحدهم رقيع، اشتم رائحة الأنثى بسهولة، ونهض تاريخ كامل من الوقاحة الدفينة، بدأ اشتباكه مبكرًا.

. بكم الواحد؟

ردت الفتاة: هما اثنان، الثاني هدية.

واصل نصب شباكه، متجهًا إلى غايته، لكنها آثرت التغاضي، وإعطاء انطباعًا بالسذاجة، وعدم الالتفاف إلى مراميه.

بإصرار أخذ يوسع هجومه.

. كم عمرك؟

أجابته بهدوء، ولكنه واصل الأسئلة.

كانت صامدة، مدربة على تلك الاقتحامات، لكنه جعل يخترق كل ما هو محظور في حواره، كلمات بلا حياء، فشعرتُ بالاختناق حيال هذا الموقف اللاإنساني.

في ذلك الحين، انطلقت إشارات متصلة، تخترق روحي، كانت جميعها تنبعث من الفتاة، بدأت معها تحولات أربكتني، فهي تعمل على توليد تضامنات فورية لا أستطيع إيقافها، حتى تراصفت معها أفكاري. قررت شراء الألعاب الصغيرة، كي أنهي هذا الموقف غير المحتمل قسوته.

قبل أن أدفع إليها بالنقود، سبقني هو ملوحًا بنقود كثيرة.

. دعكِ من هذه الأشياء، وتعاليْ معي.

ارتبكت البنت، اغرورقت عيناها بالدموع، ثم استدارت مهرولة تتخبط في مشيتها.

(٦٢)

وجهة نظر

حدثتني وهي تتخذ سمت فلاسفة أوروبا المعاصرين:

الحب لم يعد عنصرًا من عناصر الحداثة، والعواطف الحانية لم تعد تتسكع في ممرات القلب، فقط، رغبات تركض وراء أي جسد، تعريه تمامًا، بوقاحة خالصة، وفضول شرس، لا يمكن الحد من تطلعاته الآثمة، بنظرات مشفوعة بابتسامة لزجة ومتكلفة حد الإملال.

إنه الجدب، الذي تستطيع اكتشافه بسهولة داخل هذه الأرواح أسيرة الاستثارة والغرام المبتذل، نظرة الحب مختلفة في عمقها، يتبدى تأثيرها والشعور بها في الحال.

توقفت لتلتقط أنفاسها، ثم واصلت مع رشفات القهوة:

إنها كهرباء تسري داخل الأنثى، لا تستطيع صد تيارها المتدفق الذي يخرجها من غفوتها، نظرة دافئة تستر الجسد وتظلله بأمان آسر، وإحساس إنساني دقيق.

كانت الكلمات تخرج منها صادحة برنين أخاذ، منغمة ومسكونة بسحر مذهل.

قلت لها: استمري.

لم تكن تريد الاستمرار. أبدت قليلًا من التمهل، مفكرة في عوالم قصية. ثم نطقت على نحو أكثر عذوبة وأكثر اقترابًا من منابع الحكمة:

هناك نظرات ذات قيمة ثمينة، قرينة الحنان، تصدر عن عين صادقة، تجعل المرأة منخرطة في صيغ مثالية، تشعر بأن هناك ملاكًا يحرسها، يبعث الطمأنينة في روحها، ويرفع عنها أحروجة الجسد المشتهي.

أيضًا ثمة استاطيقا إيروسية، تظلل امرأة أخرى، لفتاتها، سكتاتها، خطوها النرجسي المتغنج، انطباعها بأنها تملك الوجود بهذا الجمال الشكلي، المشحون بهارمونية مستهلكة، وهوية تفتقر إلى الثبات، سديم خالص من التوهمات لا يحقق التوازن، و لا يملك المثال المستحيل، منجذبًا إلى شهوة التجديد الزائف.

راحت بعدها، تستفيض في حديث راق، مستغرقة في ملاحظات مأثورة وخارقة وهي ترفع جبينها الشجاع بإيعاز من منبه داخلي يضفي على كلماتها ظلًّا مقدسًا، حتى تمنيت أن لا تنتهي.

(٦٣)

طقوس

الطريق الواصل بين قريتي والجحيم، يرتج بين ظلامين، وتتساند على جانبيه أشجار مخيفة.

ثمة كلاب تتجمع تحت جنح الظلام، وحركة النجوم البعيدة.

يلهثون في صمت دامٍ، بلا نباح أو ضجيج.

أراقبهم من بعيد، في الساعات الأخيرة من الليل، متعجلًا الفقرة الختامية، عندما يقفزون واحدًا تلو الآخر في الترعة الصغيرة، مختفين عن الأعين، حتى انتصاف ليل الغد اللامحدود، واستعادة الصدى الهذياني لتلك الطقوس الغريبة.

(٦٤)

تعالَ

تعالَ، خذ حصتك من أنفاسي، فنحن مهجورون، ليس هناك نهاية للحلم، لحروف الهجاء، مجروحة تصوراتنا عن العالم.

ثمة انكسار، وسكينة جارحة في كل مكان، لها نقطة بدء، ولكن بلا انتهاء، متأخرين نأتي، نعاين شعاعًا ينكسر على ضلوعنا، حزمًا نارية تحول الأشياء إلى رماد، أسيجة قاتمة، بروقًا تلمع، رؤًى مهلوسة.

خذ حصتك إذن، من زهور أنثرها في فضاء لا نهائي، أقبض عليها برفق، فهي تستمد جاذبيتها من بهاء لا ينتهي، حرير أبيض يعبر بها من مكان إلى آخر دون عناء.

أنا أعرف أيضًا لصوص الكلمات، لكني أضطر إلى الصمت، وأطلق عليهم سدنة الخواء لترحل حروفهم إلى مقابر الكلمات.

فتعالَ، أحدق إلى عينيك، أهمس في أذنيك، أطلعك على السر، على غبار الحروف، على رنين الذهب، أضع يديك على ما يتعذر الإمساك به، على المحبة، قبل أن ينطفئ العالم، ونغيب في النسيان.

(٦٥)

متعلق بالفراغ

دعني متصعلكًا، متمردًا، عديم المهابة، أمازح الأغبياء الحمقى، ومجانين الساحات، أنتهك العقل والمنطق، أبتكر شخوصًا معذبة، وأشباحًا ذابلة، واعيًا بالغياب، هاذيًا مع كائنات لا مرئية، وأرواح فارَّة من قبضة الظلام.

دعني، ربما وجدت العالم أقل قسوة، فظلك المتربص يخنق أحلامي، وأنا متعلق بالفراغ.

(٦٦)

كتابة

أكتب الآن نصًّا قصيرًا، موجودًا في ذهني منذ فترة، لكني تكاسلت عنه، تركته ينهض وحده في منتصف ليلة لامعة، كعادتي مع هذا النوع من القصص، فأنا هنا، لا أفعل شيئًا، فقط أكون قلمًا متحركًا فوق الصفحة البيضاء، يخط وحيدًا ما يتراءى له. هناك رجلان يتصارعان على امرأة حزينة، وهي لا تدري. أيضًا، هناك امرأة لا تروض، تتسلل بطيئًا، لتقتنص واحدًا منهما.

في خلفية القصة أنثى مفعمة بنزوات متوترة، تعمل في قلب الظل كدليل محبة، لكن الصمت يتساقط كل لحظة، والمشاهد المرتجاة تشحب، وتكاد تتوقف، ربما وثبة عميقة، تذهب بالعناصر القليلة إلى الفراغ والعدم.

إحساسي بالزمن يترهل في غياب أبطال هذه الحكاية، وإضرابهم عن المواصلة، وخجلي من عدم العثور على ما يستحق الكتابة يجعلني أصر على المضي قدمًا في بناء حكاية أخرى مؤجلة. بعدما تبدل الليلة أحوالها، وتنعس الفراشات الهائمة.

(٦٧)

تمرد

عندما تتخلى عن الشك، ستعلم أن الأشياء يمكن فهمها في ذاتها، وأنك لم تكن تجيد شيئًا سوى الثرثرة، ودحض المقولات المبحرة في السديم، لا تنظر إليَّ هكذا، لقد دفعتني إلى كراهية هذا العالم، والنظر إليه بمرارة، غيبت عني أشياء جميلة، كان لي ثأر معها، مدربًا انفعالاتي، ورغباتي، على عدم اليقين، مفتقرًا إلى أي حس بالواقع الحي، مجردًا كل الكيانات من كينونتها على نحو لا شفقة فيه.

ربما ألجأتني هذه النشأة إلى الخرافة، والأساطير، إلى السعي وراء ربات الفنون، وراء عالم آخر، مترع بالدهشة والجنون، بالسرود التي لا يمكن عبور هذه الحياة دون مطالعتها.

الآن لا أعرف، هل أنا مدين لك، أم لا، ولكني أسبغ عليك احترامًا أنت جدير به، لأنك علمتني الفضول والتأمل، وابتعدت بي عن دجالين لا يعلمون شيئًا، كنت مخلصًا في تصوراتك حتى لو كانت تحتاج إلى المراجعة والتمحيص، مدين لك بتأثيرٍ، حتى لو بدا محدودًا، لكنه فتح لي أبوابًا أخرى فرضها العناد والتمرد، والسعي وراء الحكايات والتدوين. وراء ما أستطيع إجادته، واحتواءه بحب كبير.

(٦٨)

لا أحتمل ضوء القمر

أين هو الظل الذي أستند إليه، العطر المنبعث من روحه، تحولات الندى قبل طلوع الفجر.

أجلس وحيدة، أستقبل القمر الذي يحتشد في حزم مضيئة، ويخترق شرفتي، يفرش الفراغ بنور رومانسي شفيف، يعيدني إلى ليالٍ كنا نداعب فيها الصمت بنشوات ساحرة، حينها، كان يسكب حبه الدافئ في أحشائي، متحولًا عن طبيعته المتحفظة، إلى روح مرحة، تدرك قيمة اللحظات.

يتطلع إليَّ، مستغرقًا في أدق التفاصيل، كانت هذه النظرات تقلقني، أستشعر ما وراءها، هل كان يعلم أنه سيغادرني إلى الأبد، فصار يتشرب ملامحي، ويختزنها داخل خلاياه، حتى يمضي بها إلى عالم كان يتوقعه، منفيًّا إلى جزر بلا تسمية.

الآن، تأكدت حدوسي، وأنا أتأمل ما مضى غارقة في انسحاق حزين، بعينين مجهدتين من البكاء، وأعصاب هزها الفراق والتوتر، الآن فقط، لا أحتمل ضوء القمر، لا أحتمل تحولات الندى، أو زقزقة العصافير وهي تستيقظ عند البكور، وحدي تخنقني العزلة، وأصنع

لنفسي كائنًا آخر، يغدق محبته على هذه الغرفة المقفرة، ويجدد فيها الحنين.

(٦٩)

سقوط

حتى وقت قريب جدًّا، كنت الأكثر توقدًا، ميالة إلى الصمت كعصفورة خرساء، لا تبوحين بشيء، وهم يسردون أمامك بطولاتهم الزائفة، يتحدث الأكثر مجونًا، والزنديق، ثم يختتم العربيد الأمهر، مستغلًّا وقاحته، لكن لا شيء يستطيع النيل من هذا الشعور المتنامي بالشرف.

كنت تتسامين في أثناء صعودك للاستراحة فوق قمة مقدسة، تراها جيدًا أعين العابرين، ويستشعرها كل من يعرفك.

تتجاهلين هذا العالم، لا تنبسي ببنت شفة، مراعاة للياقة، وهروبًا من هذا الضجر، كانوا يبحثون عن متعة عابرة، وكنت باهظة الثمن.

قلعة مكينة، يصعب اختراقها، لم يروا وجهك خلال الظلال، خلال السحب الحارسة.

يقضي أحدهم نهارًا بأكمله على أبواب مدينتك، ينتظر إشارة ما. مسلحًا بكنوز العالم. لكنه يعود خالي الوفاض، حزينًا متألمًا.

اليوم. صار لك حياتان متمايزتان:

حياة معلنة، تبدين فيها كراهبة، يتساقط تحت أقدامها الصناديد، ذوو المظاهر الواثقة، صرعى الرفض، وعدم القبول.

حياة أخرى، أقل مثابرة، تسلكين فيها دروبًا خاطئة، وتمكثين في الكهوف المظلمة، في كل ما هو إباحي، تبذلين لحمًا زاهيًا. لا تدركين شيئًا أمام الأثر اللانهائي للضعة.

أمام اللافهم المتصاعد من نظرات ترمق ما يجري وهي متحيرة، حيث يشاهدونك على عتبات تنقصها التسميات، غير متألمة.

(٧٠)

مطر

الأزيز المهدد للمارة والعابرين، يبرق فى الأسلاك العارية، تحت المطر، ولمعان البرق ينذر بسيل عارم.

تحت وطأة هذه الظروف، يتخفى الجميع من الشيطان الخارج من عمق الظلام، للصيد، واقتناص الضحايا، وفرض شروطه المجحفة على هذا المشئوم الذى سيكون أول من يقابله فور الإنقطاع التام للكهرباء .

أيضا. ينخفى الجميع من هذا الذى يكمن متحفزا، ينتظر بنفاد صبر اللحظات المواتية الشيطان. يبدأ من نقطة محددة، ساعيا فى صمت، تجاه الهدف . منتحلا سمتا بشريا، ملمح رجل مسن فى زى القديسين . الآخر. الكامن فى جحره، يبدأ فى التحرك، منتحلا سمتا شيطانيا، ملابس سوداء، قناع مخيف وفقا للمظهرالكلاسيكى لإبليس . فى ساعات قليلة، يقضى كلاهما على عدد من التعساء، الذين لم يستطيعوا العودة إلى منازلهم فى هذا الجو الغامض . فى نهاية المطاف . وعند نقطة معينة، يتقابلان، مكان مهجور، لا تذهب إليه الكائنات الهشة للوهلة الأولى، اقشعر جسد كل منهما، وتصاعدت إمارات الريبة.

الآدمى ارتعد، أخذته الرجفة الطبيعية التى تولد مباشرة عند مواجهة الشيطان، لكنها رجفة بلاخوف، تحمل تحذير لا أكثر، نداء لحوح بأنه يواجه كائن ذا طبيعة مغايرة، مسكونا بالغموض والمداورة، وأن هناك خدعة ماكرة . لقد أدركه فى الحال، أخترقه بوصفه حجما وشكلا لاينتمى إلى تلك العناصر التى يمتلكها هو، فملكة تكوين الصور لديه هى التى تساعده فى التجوال تحت جنح الظلام، وتعمل على اكتشاف ضحاياه بسرعة مذهلة .

الشيطان . عن طريق التعقيدات، والشكوكية، وحالته الخطاءة منذ البداية، إ كتشف أن هذه الطبيعة المغرقة فى الشر، المدفونة تحت قناع زائف، هى لآدمى، وساوره شعور طفيف بالخوف للمرة الأولى فى حياته، أثناء هذا الصراع الضارى، المشحون بالترقب، والمارعبر لحظات غير مدركة. إقتربا من بعضهما، لم يفصل بينهما سوى خطوة واحدة . بنظرة خاطفة، وزن كل منهما الآخر ليتيقن من قوته، ربما توآئما على نحو فاوسيتى وعقدا صفقة مرعبة .

(٧١)

غبار

غبار ودم، ونار، بوم ينعق في الخرائب،

والرجل الأجوف في متاهة أحلامه المهرطقة، ضالع في عماه، في نعاسه الكئيب، يرهن الذبيحة بين يدي قواد وسكير، لا يلمح الغضب المتصاعد في الأفق، يظنه كرنفالًا ليليًّا، وضجيج رقصات شائقة.

الدروب مكدسة بأشلاء العابرين، والزمن يطارده كفريسة مضحًى بها في نهاية المطاف.

(٧٢)

موقف

كنت جالسًا مع جمع من الأصدقاء، نثرثر في أشياء فارغة، حتى لمحته يقترب مني، ويسحبني بيدي.

. تعالَ معي.

مشيت إلى جواره في هدوء، مستجيبًا له، لم يكن أريحيًّا مطمئنًّا كعادته. ثمة انكسار، وأسًى دفين، يطويه بين جوانحه، كان يبدو متأثرًا، وحزينًا، هذا ما ألاحظه عليه منذ فترة غير قصيرة.

. انظر إلى هذه الباحة!

قال.

ثم أضاف بعدها والدموع تلمع في عينيه:

لا بد من عمل سرادق كبير هنا.

. لمن؟

سألت.

فذكر لي صديقنا الذي توفي منذ أيام قليلة دون عزاء.

. نحن أولى به، أسرته لم تهتم بشيء.

قال.

بنبرة مخنوقة أضاف:

. سأتكفل أنا بجميع المصروفات.

وقفت ساكنًا أمام جديته، وأناقته البرجوازية، أمعن في سمته الرصين رغم أنه في مقتبل العمر.

. متى نقيم العزاء؟

سألت.

في الغد، لا نؤجل.

أجابني.

في الغد، كنت أقف في مدخل السرادق، أتلقى العزاء وأنا أسترجع توجيهاته لي بالأمس، قبل أن يفارقنا، كنت مذهولًا وغير مصدق.

(٧٣)

إناء فخاري

أحضرناه معنا ضمن أشياء كثيرة جلبناها ونحن عائدون من المدينة الرابضة هناك أقصى الجنوب، جذبني إليه مظهره الجميل ونحن نتسكع للتسوق.

. إنه يصلح للطهو المتمهل. قالت زوجتي.

في المرة الأولى، وضعت داخله بعض الخضروات وقطع اللحم، ودسسته داخل الفرن، بعد الوقت المحدد أحضرته، كان الأمر مفاجئًا.

درجة الغليان لم تفارق الإناء فوق المائدة، ظل هكذا دون أن ينضج الطعام داخله.

في المرة الثانية، قامت بوضع طعام مختلف، عند إحضاره لاح شيء غريب.

الطعام مصبوغ بالأحمر، الدم يغطي كل ما بداخله، فشعرت بالامتعاض وقررت التخلص منه.

بعد أيام قليلة، وعند خروجي من المسكن، وجدته أمامي، نظيفًا لامعًا، رفعته من فوق الأرض بنية حمله إلى أبعد مكان، عندما تحركت كان الإناء ثقيل على نحوٍ غير طبيعي، فأعدته مكانه.

عندما عدت في المساء، لم أجده أمام باب المسكن، فتناسيت الأمر، لكني فوجئت به فوق المائدة مملوءًا بماء معطر.

سألت زوجتي:

. من الذي أعاده إلى هنا؟

نظرت إليَّ مستغربة.

. أنسيت، ألم تقل لي، ضعيه هنا فوق المائدة، سنزرعه بالورد!

كنت متروكًا في دهشتي، أتردد برغبة خجلى في المواصلة، طارت الأسئلة وتبدَّى أمامي غموض شديد حتى أيقظتني دقات متواصلة على الباب.

عندما فتحت، وجدت صبية صغيرة، ابتسامتها ساحرة، تمد يدها بوردة فواحة العبير، لونها أسطوري، وحجمها غير معتاد إليَّ.

– ضع هذه داخل الإناء، إنه ترابي المدفون في "الأعماق"، بَرِّده دائمًا بالماء والياسمين.

كانـت تقـف أمـامي، كفهـا معلقـة فـي الهـواء، وصـوتها يعزلنـي ويركض بـي إلـى عصـور بعيدة، موغلـة فـي القدم، بينمـا الأشياء تغيب عن ناظري وأنا أنسحب معها إلى عالم غريب ومذهل.

(٧٤)

أم

كان يجفل عندما يطيل النظر إليها. غير مصدق أن هناك إنسانا يخلو من الشر والحسد، يجلس إليها ساعة السحر، بعدما تستيقظ من النوم وحدها، هاربًا من الحيرة والسأم، ينصت إلى أورادها الصامتة، وهي تهمس بها إلى سماء حاضرة، يلمح راحة وسكينة، تنبسطان على ملامحها، يراوده شك بأنها كائن سماوي هبط إلى الأرض ليعيش بين البشر، ملاك يخفي عن العيون جناحيه.

كانت تنظر إليه.

. ربنا يكرمك، أنت وأندادك.

وهو يرد عليها مازحًا:

اجعلي الدعاء لي وحدي، أندادي لديهم أمهات يقمن بالدعاء لهم.

ثم يضيف ضاحكًا:

. حتى لا يخطئني الدعاء فيذهب إليهم.

. الناس كل الناس بحاجة إلى الدعاء.

تقول بطيبة خالصة.

كانت تصنع جيوبًا واسعة لجلابيبها، تضع فيها نقودًا معدنية، لتقوم بتوزيعها على أطفال الحارة بسعادة غامرة، كأنها تتخلص من همومها وآلامها، حتى كاد يعتقد أن يدًا مجهولة تأتي كل ليلة، تضع لها النقود خلسة، في أثناء نومها المطمئن، باحثة عن الطرق التي يسلكها الله لملاقاة الذين يبحثون عنه.

(٧٥)

شـجـرة

الأقل ترابطًا والأكثر احتدامًا، الذي لا يمكن العثور على مثيل له قط، كل أشيائه عديمة النفع عل وجه الإجمال، هذا المنكود ذو الذاكرة المثقوبة الذي تركني فريسة الغضب والجنون، مقيدًا بالسلاسل في باطن شجرة عتيقة.

بعدما اجتزنا طريقًا رمليًّا، تتشابك فيه الأغصان الكثيفة، وتتناثر على جانبيه الأصوات المتشظية، كأنها زجاج يتهشم فوق أرض صخرية.

انفجارات تدوي، نداءات مجهولة تنبعث بهمس غريب.

كنت أتحمل من أجل الوصول إلى هذه النقطة المستحيلة التي رآها في منامه، وحدثني عنها بأنفاس متقطعة، وملامح مسحورة:

ـ إنها شجرة لا تظهر إلَّا ليلة واحدة في العام القمري، ثم تختفي في الصباح التالي، تنسحب مع انقشاع الظلام متلاشية تحت الضياء. قال.

ثم ماذا؟

ردد قبل أن يدخل في تحولاته ويتخذ سمت الحكماء،

. إنها تحوي تواريخ العالم. أجابني.

. ثم ماذا؟

. والسير المهملة.

. ثم ماذا؟

– ما تجاهله المؤرخون، وتغاضوا عنه، ما لم يدون عن عمد وإصرار. كتب السماء: أصول الكتب الكبرى التي تم تدميرها وحرقها.

كنت أطالع وجهًا لم أعرفه، نبرات غريبة، ونظرات مقلقة.

. لقد أخبرتك بكل شيء، إذا لم نستطع اللحاق، الليلة، فلن نستطيع الوصول إليها أبدًا.

تشغلني فكرة المغامرة، حركت داخلي ولعي السابق بالمعرفة.

هناك، بعد رحلة شاقة، واختراق طقس حلمي، وصلنا إلى الباب المنحوت بالشجرة، عندما ولجنا إلى الداخل، لم أشعر بالعالم الذي تركته خلفي، كنت أعتقد أني سأتحرك داخل تجويف مظلم، لكني وجدت نفسي داخل حديقة مضيئة لا يوجد بها بشر.

في لحظة خاطفة انتبهت إليه.

ـ هـا هـو الصـندوق، كمـا رأيتـه تمامًـا، داخلـه كـل مـا سـيربك الإنسانية، ويعيد إنتاج المعرفة على نحو آخر. قال منبهرًا.

. هكذا ببساطة؟ قلت ساخرًا.

. نعم.

أجـابني علـى نحـو أكثـر سـخرية، ثـم فاجـأني بضـربة قويـة فـوق رأسي.

بين ذهولي، وامتعاضـي، وعدم قدرتي علـى التحرك، قـام بتقييدي بمهارة غريبة عليه.

أخذت أنظر إليه مرتعباً، وهو يحمل الصندوق مغادرًا المكان.

. لا تتركني. رجوته.

ردَّ بنبرة جادة، كأنه شخص آخر لا أعرفه.

– سـاعات قليلـة وتختفـي مـع هـذه الشـجرة، سـتذهب إلـى عـالم أكثـر بهاءً مفعمًا بالخواص النقية.

كان يحدثني وهو يتحرك في طوايا النسيان، تاركًا وراءه أشياء لا أعتقد أنه سيتذكر عنها لمحة بسيطة، فهو يحمل ذاكرة بيضاء، هواؤها ساكن، وتنهل من اللايقين والعدم.

(٧٦)

إشـارات

الطعام كان شهيًّا وأنا أمضغه بتمهل، شاردًا كعادتي وراء حكايات متصارعة تدور في ذهني وتلغي كل المرئيات حولي.

مع ذلك، لمحته وهو يلج المكان مترددًا، حذرًا. ثم وهو يجلس بهدوء إلى إحدى الموائد، طنين الأفكار يشاغلني، ويطغى على صوت الموسيقا المتصاعد كأزيز جنادب لا تعرف التوقف.

كنت وحيدًا، متروكًا في عزلتي، أحاول بصعوبة الانتهاء من طعامي.

بدأت معركة صامتة في التشكل، في الركن الذي انتهى إليه الرجل ساقطًا على كرسيِّه، وهو يعتذر لكائن خفي، كأنما يسند عليه نظرته حتى يتفرغ للحياة. حضر أحد العاملين، وقام بجذب الرجل، محاولًا جره إلى الخارج، لكنه لم يستطع.

. جائع.

نطق هامسًا متحرجًا.

كان جسده يقارب الانهيار، ويده ترتجف بشدة.

تحركت إلى هناك.

. دعه.

قلت وأنا أخلصه من يدي العامل، ثم أجلسته إلى مائدتي.

. اطلب ما تشاء. قلت.

مسح المائدة بنظرة سريعة.

أمامي ما يكفيني. قال.

في هذه الأثناء، حضر مدير المطعم، قدم إليَّ اعتذارًا رتيبًا، راجيًا السماح له بطرد الرجل.

رفضت بشدة.

أحضِر له طعامًا مماثلًا.

أمام إصراري، انصرف حانقًا، قلت بحسم وهو يكظم غيظه بصعوبة.

تعمدت الجلوس مع الرجل حتى ينهي طعامه، لا يضايقه أحد... بعد عدة سنوات، فوجئت به، جالسًا إلى جواري في طائرة متجهة إلى عاصمة كبرى، وجدتني أتطلع إلى برجوازي صغير، يتحدث بلكنة

أرستقراطية معجونة بعديد من اللغات،أخذت أصغي إليه وهو يتذكر كل شيء بملامح مظللة بمعانٍ مربكة، لا أدري أين تسربت تلك الغيوم، ونظرات التألم، التي كانت حبيسة لَفتاتِه السابقة.

قال:

ـ تجرأت على الدخول بعدما رأيتك بالداخل، كنت أعرف أنك ستنهي هذه المشكلة، وتدعوني إلى الطعام.

صمت قليلًا ثم أضاف:

غدًا ينتظرك حظ طيب.

في صالة الخروج أومأ لي بابتسامة غامضة قبل أن يعبر البوابة الكبرى، ويختض في زحام العالم أعطاني ظرفًا صغيرًا، قبل أن يعبر البوابة الكبرى.

الفهرس

استهلال ٧
على باب الله ٩
غريب ١١
أعظم شحاذة في التاريخ ١٣
رجلان وظل وحيد ١٥
رؤًى ١٧
مديح العَمى ١٨
قطرات الماء ٢٠
هاوية ٢٣
حكمة الكاف ٢٤
حُب ٢٦
رائحة البن ٢٧
بَرد ٢٨
أزرق لازوردي ٢٩
صمت ٣٠
خجل ٣١
خارطة الماء ٣٢
فُقدان ٣٣
ارسم لي لوحة لا يوجد فيها جدار ٣٤
القديسون وسيدة المطبخ ٣٦
في هذه المدينة ٣٨
الأشياء الأكثر جمالًا ٣٩
على باب الوطن ٤٠
رسالة ٤١
خيال نازف ٤٢
وميض ٤٣

وحيدان ٤٤
كرنفال ٤٥
نقود ٤٧
ألماسة ٤٩
تكرار ٥٢
غيوم ٥٣
الرجل القادم من الجنة ٥٤
متاهة ٥٧
عودة ٥٨
سيليكون ٥٩
متاريس ٦٠
نوستالجيا ٦٢
إليهِ ٦٣
منعطف ٦٤
رُضاب ٦٥
حيرة كائن ٦٦
المحطة ٦٧
سيد الانتقاءات الجميلة ٦٩
مونولوج ٧٠
وحدك ٧٢
حدائق التَّشَهِّي ٧٣
ثمة صفحات ما زالت بيضاء ٧٤
مصير ٧٥
روح هائمة ٧٦
هل أنت معي ٧٧
باقة ورد ٧٨
اختلاس الهدأة ٧٩
مطاردة في أمشير ٨١

نعْسَة بملامح مثيرة ٨٢
المآلات ٨٣
رهبة ٨٥
(لَيدي) ٨٧
ما لا اسم له ٨٨
الكلمات ٨٩
الأقل امتثالًا ٩١
مندوبة مبيعات ٩٢
وجهة نظر ٩٥
طقوس ٩٧
تعالَ ٩٨
متعلق بالفراغ ٩٩
كتابة ١٠٠
تمرد ١٠١
لا أحتمل ضوء القمر ١٠٢
سقوط ١٠٤
مطر ١٠٦
غبار ١٠٨
موقف ١٠٩
إناء فخاري ١١١
أم ١١٤
شجرة ١١٦
إشارات ١٢٠